محمود تيمور

الوثبة الأولى

دار النشر الحديث
١٩٣٧

كلمة تصـــدير

أعتقدأن لكل كاتب مراحل يجتازها فى حياته العقلية ، تختلف باختلاف تطوره الفكرى . ويخيل لى أن الفترة التى أخرجت فيها مجموعاتى القصصية الأولى : الشيخ جمعه ، وعم متولى ، والشيخ سيد العبيط ، تمثل الحقبة الأولى من حقب تفكيري .

ولما كنت حريصا على الاحتفاظ بنتاج هذه الحقبة ، رأيت أن أجمع ذلك المجهود المتفرق فى كتاب واحد،

يحمل طابعاً واحداً ، أسميه « الوثبة الاولى » . ولم أشا أن أظهره على علاته . فتناولته بالحذف والتهذيب والاصلاح ، حتى غدا على الصورة التي يراه القارىء عليها الآن . فالكتاب وإن احتفظ بطابعه القديم في الموضوع والفكرة ، فقد اختلف عنه في الأسلوب والمعالجة . وقد قدمت له بكلمة عن (حاجتنا إلى الفن) .

وأرجو أن أكون قد أرحت ضميري وأرضيت قرائي بعملي هذا .

حاجتنا إلى الفن

وهى المحاضرة التى ألقاها المؤلف
فى رابطة موظفى الحكومة يوم ٢١
يناير سنة ١٩٣٧

أنحن فى حاجة إلى الفن ؟ سؤال يتردد كثيراً على ألسنتنا ولا يجد منا إلا أجوبة متناقضة . فهل نحن حقاً فى حاجة ماسة إلى الفن ؟ هل هو عامل أساسى فى حياتنا لا يمكننا الاستغناء عنه ، أم هو أمر ثانوى نلجأ إليه للترفيه عن أنفسنا فقط ؟

الفن كما هو معروف ومصطلح عليه بيننا هو كل ما تضمه الآداب من شعر وقصص ودرامة وما إليها .

وما تحويه الفنون الجميلة من تصوير ونحت وتمثيل وما شابهها . فأذا أردنا أن نصوغ السؤال على صيغة أوضح قلنا : هل وجود قصيدة لشاعر أو لوحة لمصور أو تمثال لنحات ، لازم لنا فى الحياة لزوم مصل من الأمصال معد لمكافحة مرض عُضال . أو قنطرة هندسية لتنظيم الرى لقطر زراعىّ ؟ وهل لوجود الفنانين من شعراء ودراميين ومثّالين نفع للهيئة الاجتماعية يماثل نفع الأطباء والمهندسين ؟

هذا هو موضوع حديثنا .

أول شيء نريد معرفته هو : ما هو الفن ؟ ولوضع تعريف صحيح للفن يجب أن نعرض أمامنا عملا فنياً ونحلّله لنصل الى حقيقته ومبلغ نفعه لنا .

فهذه قصيدة من الشعر لشاعر فنان . يصف لنا فيها حديقة زاهرة بالورود . يستطيع أى إنسان ليس من ذوى الفنون أن يصف لنا هذه الحديقة وصفاً لا يتعدى ما نجده فى قائمة المزادات والبيوع — وصفاً لا يترك

أى أثر فى نفوسنا . أما الشاعر الفنان فهو يقدم لنا صورة طريفة مبتكرة عن هذه الحديقة . يصفها لنا فى موسيقية أخّاذة معدداً لنا محاسنها كاشفاً لنا عن جمالها الحقيق . ثم ياخذ بيدنا ويدخل معنا عالم الورود السحرىّ ويدعنا نعيش فيه برهة من الزمن . فهذه زهرة طفلة تبدأ حياتها فى طمأنينة وهدوء . وتلك زهرة شابة قد انتزعتها يد عاتية وألقتها فى مواطىء الاقدام . هذه تبتسم مرحة تنشر حولها عبيرها الجميل . وتلك تجمع أوراقها الذابلة حول نفسها تحاول الاحتفاظ بما بقى لها من شباب ذابل فان . نسير بين هذه الكائنات اللطيفة نصغى إلى همساتها المطربة وإلى نواحها المحزن . نشاركها سرورها وأحزانها وألعابها مستمتعين دائماً بجمالها الفتان .

لقد شعرنا ونحن نقرأ هذه القصيدة بشىء يتحرك فى قرارة نفوسنا ، بشىء كان نائماً ، فلمسه هذا الشاعر وأيقظه . هذا الشىء هو الشعور بجمال هذه الورود . والاحساس نحوها بألفة عجيبة ، برباط روحى سامٍ .

لقد كشف لنا هذا الشاعر الفنان عن الجمال فى ناحية من نواحى هذا الوجود . وجعلنا نتذوق هذا الجمال فى سرور . وأيقظ فى قلوبنا عاطفة الحب السامية نحو مظهر من مظاهر الطبيعة .

فغاية الفن الكشف عن الجمال وتسجيل مظاهره وتذوق فتنته . ومتى تذوقنا فتنة الشيء أحببناه . فالجمال والحب كلمتان كل منهما متممة للأخرى . فليس هناك جمال بلا حب ، وليس هناك حب بلا جمال . فالشيء الجميل هو الذى يُشعرنا بالجمال والحب . ونحن لا نحب إلا الشيء الجميل . فالفن إذن هو الذى يُشعرنا بالجمال والحب . فما هو الجمال ؟ وما هو الحب ؟ لا يمكننا أن نعرّف الجمال تعريفاً معيناً له قواعد ثابتة ، وخطوط محدودة . فالجمال نسبى ، وقد يختلف باختلاف الزمان والمكان . على أننا يمكننا أن نعرّفه تعريفاً عاماً فنقول : هو ذلك الذى يحوى من التناسق المادى أو الروحى ما يشعرنا بلذة وسرور عند رؤيته . فهذه صورة هرم

قد طحنته السنون استطاع مصورها الفنان أن يُشعرنا بجمالها . ففى الهرَم جمال يماثل جمال الشباب وجمال الطفولة . والطبيعة تزخر بألوان من الجمال لا حدّ لها ، ووظيفة الفنان أن يكشف لنا عنها وينبهنا إلى وجودها ويحببها لنا . فهناك جمال فى الطهارة ، جمال فى الشجاعة ، جمال فى الحيوان ، جمال فى الجماد ! جمال فى الشيء العظيم . جمال فى الشيء التافه الصغير ما دام فيه تناسق مادى أو روحى يستطيع أن يبعث فينا اللذة والسرور .

هذا هو الجمال . فما هو الحب ؟ الحب فى معناه الأصلى هو الجاذبية . فهذان الشخصان يشعر كل منهما بحب للآخر ، أى أن كلا منهما فيه جاذبية تجذب رفيقه إليه . والانسان إذا أحب رغب — بلا جدال — فى خير حبيبه . ولا يمكننا أن نتصور محباً يضمر الشر لمن يحبه . فالحب إذن غايته الخير . ولما كان الفن غايته الحب ، فالفن إذن يرمى دائماً إلى الخير . ولا يكون الفن فناً إلا إذا كانت وجهته الخير . والفنان لا يكون فناناً إلا إذا

كان الخير وحى فنه وغايته .

ولكننا نلاحظ أن الفن لم يقصر غايته على إظهار الناحية الجميلة فى الحياة . فكثيراً ما رسم لنا الفنان صورة كريهة تمثل القسوة والشر . فكيف يكون فى هذه اللوحة جمال وهى بعيدة البعد كله عن الحب والجمال والخير . الحقيقة أن هذه اللوحة ليس فيها جمال ظاهر . ولكن الفنان الذى صورها رمى من غير وعى إلى إظهار روعة الجمال من طريق غير مباشر . فهو رسم لنا القسوة ليشعرنا بالرحمة من حيث لا يدرى ، وحدثنا عن الدنس لنحس بالطهارة . فالشيء لا يعرف إلا بضده . ولو كان العالم كله خيراً صرفاً لفقد هذا الخير قيمته ، ولما استطعنا تذوق جماله . ولا يغيب عن نظرنا أن الفنان ناقد قبل كل شيء ، فهو يعبّر لنا فى صدق وإخلاص عما يحس به نحو ما فى هذا العالم من حسن وقبيح . ويصوره لنا تصويراً صادقاً . فالغاية التى يرمى إليها فى الحقيقة هى الجمال يسلك إليه الطريق الذى يريد .

وهناك تفسير آخر لهذه المسألة . أمامنا رواية يحدثنا فيها مؤلفها الفنان عن شخصيات مجرمة شرّيرة . ويحللها أمامنا فنرى نفوسها على حقيقتها وكيف تتطور فى سبيل الاجرام وعمل الشر . وكلما تابعنا قراءتنا وتعمقنا فى دراستنا لهذه الشخصيات شعرنا بأحساس عطف غريب نحوها . لقد كشف لنا الفنان فى شخصية المجرم عن مريض تعس ظلمته الأقدار . مريض اضطرته أحوال وراثته وبيئته أن يغدو شريراً . ثم تألبت عليه قوانين البشر تطارده وتستحل تعذيبه . فكيف لا نستشعر الرحمة له

لقد استطاع الفنان أن يثير فينا هذه العاطفة السامية، لأن قلبه هو عامر بالحب الانسانى العظيم — عامر بالحب لهذه المخلوقات جميلة كانت أو دميمة . والفنان المجرد من هذه العاطفة الانسانية السامية لا يكون فناناً . ونحن لا نتصور وجود مؤلف فنان يضمر البغض لشخصيات رواياته . فما هذه الشخصيات إلا مخلوقات من صنع يده ،

هو خالقها ومبدعهـــا . فكيف يبغض الخالق مخلوقاً من صنعه .

والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة الدقيقة — نقطة الخير والشر واتصالها بالفن — نرى أن نستوفى البحث فيها قبل الانتقال إلى غيرها . فما هو الخير وما هو الشر ؟

الخير فى معناه الأصلى هو الذى يقصد إلى المنفعة . فالشر منطقياً هو الذى يقصد إلى الضرر . وقد سمينـا بعض الصفات فضائل أى صفات خيّـرة لأننا رأيناها نافعة لتقدم البشرية . وسمينا الأخرى رذائل أى صفات شريرة لأننا رأيناها مضرة بالانسانية . ولنضرب لذلك مثلا . فالانسان فى بداءته ، عند ما كان همجياً يحيا حياة عزلة وانفراد كان يستحل القتل ويراه من ضرورات حياته . يقتل ليسلب أخاه الآدمى طعامه أو امرأته أو ما شابهما . وظل الأمر كذلك حتى شعر الانسان بفائدة التعاون مع غيره ، وكوّن معه أول هيئـة من الهيئات الاجتماعية ، وحينئذ عدّ القتل فى دائرة هـذه

الهيئة شراً غير مسموح به . وصار عدم الاعتداء فضيلة واجبة الاحترام لأن فيها تأميناً لحياته وحيـاة رفاقه . ولـكن قتل الآخرين ممن هم خارجون عن حِلْفِـهِ بقى فضيلة من أشرف الفضـائل . ومن يستطيـع أن يسمى المحارب الذى يذود عن وطنه سفاكا قاتلا . وقس على ذلك جميـع الفضـائل بلا استثناء ، فليست هناك فضيلة واحدة فيها معنى الفضيلة لذاتها بل لفائدتهـا للمجتمع . إذن فكل شيء نافع لنا هو خير . وكل شيء مضر بنـا هو شر .

ونحن إذا نظرنا إلى حالة هـذا الـكون وما يشتمل عليه من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجدناه دائماً فى تقـدم ورقىّ . فهو يتطور نحو الـكمال فى اطراد . وهذا أمر يكاد يكون ملموساً . فأين دنيا سنـة ٣٧ من دنيا قبل التاريخ . فنظرية التطور تحوى عنصر المنفعة . وإلا لما كان هناك تطور . وبما أن الخير هو المنفعة فالعالم يسير مدفوعاً بعـامل الخير أى أن نزعة الخير هى التى

تسوده . فهل هذا معناه أن الشر معدوم . كلا . ولكنه خاضع لعامل الخير الأكبر .

فهذه الحروب بفظاعتها وويلاتها هي فى ذاتها شر . ولكنه شر تعتمد عليه الانسانية فى سيرها نحو الكمال . فلولا الحروب لما بقيت الأمم النافعة . ولولاها لما انتشرت المدنيات ولما عمت قوانين الخير . وهذه الطبيعة قد اتخذت لها قانون تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وهو قانون فيه قسوة وشر . ولكن لولاه لما استطاع العالم أن يخطو فى سبيل رقيه خطوة واحدة .

وقد وقعت وما زالت تقع كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين وطغيان الأنهر والبحور . هذه الكوارث يقف أمامها الانسان حائراً مدهوشاً يسائل نفسه أين نزعة الخير فيها . ليست هذه الكوارث فى الواقع خيراً صرفاً ، ولكنها وسائل قاسية لجأت إليها الطبيعة لتصلح من أمر نفسها . هي فى الحقيقة إحدى ظواهر التطور الطبيعي للكرة الأرضية لولا وقوعها لما أصبحت الكرة

الأرضية فى شكلها ونظامها الحالى بجبـــالها ووهادها وأنهارها وبحورها . وما هذه الزلازل والانفجارات التى ما زلنا نسمع بحدوثها إلا بقايا ذلك العهد الغابر الجبار — عهد تكوين الكرة الأرضية . فالتطور لابد له من ضحايا . ولا يمكنه أن يتم عمله العظيم إلا إذا سار على أشلاء قتلاه . ولكنه دائما يسير ووجهته الخير العام .

فهذا الشر الذى نسميه شراً ما هو فى الحقيقة إلا أداة من أدوات الخير ما دام من ورائه تقدّم العالم ورقىّ البشرية . وما أحرانا أن نسمّى هذا الشر قسوة خالصة . فنحن نحب أولادنا ولكن حبنا لهم لا يمنعنا من أن نقسو عليهم فى سبيل نفعهم .

ولكن لا يغيب عن بالنا أن فى العالم شروراً أخرى تأتى أهميتها فى المقام الثانى من حيث خطرها على تطور الحياة وارتقائها . وهذه الشرور تقع فى المعاملة وتبادل المنافع الشخصية كالسرقة والاحتيال وما شابههما .

ونحن إذا تصفحنا تاريخ دولة المماليك فى مصر راعنا

ما نجده فيه من روعة الفن . فليس من ينكر أن سلاطين المماليك الذين حكموا مصر قبل الفتح العثمانى كانوا من المحبين للفنون ، ينشدونها فى مسكنهم وملبسهم ومختلف مظاهر حياتهم، تخلّفوا هذا التراث المجيد من آثارهم فى البناء والزخرفة . ولكن هذا لم يمنعهم من أن يكونوا قساة يحكمون بالدم . فكيف اتفق الفن والشر . فجواباً على ذلك نقول : لِمَ لا تكون نزعة المملوك الأصيلة نزعة خيّرة فى ذاتها . وما دفعه فى هذا السبيل الدامى سوى بصيرته أى — واعيته الخفية — التى رأت أن لا مندوحة للقضاء على الفتن واستتباب الأمن وإنشاء دولة قوية إلا بهذه الوسائل القاسية . إن النزعة المسيطرة على هذا الوجود هى النزعة الخيّرة . أو بعبارة أخرى إن بذرة الخير بذرة أصيلة كامنة فى تلافيف هذا العالم وهى التى تسير به دائماً إلى هدف معين هو منفعته ورقيه . بذرة الخير هذه موجودة فى كل الكائنات صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها . فهذه الذرات التى يتكون

منها جميع ما فى هذا العالم من الكائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض وتسير حول نفسها فى حركات هى أرقى ما وصل إليه النظام والتناسق أى أرقى ماوصل إليه الجمال . وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية أى بقوة الحب . ومن هذا التناسق وهذه الجاذبية تكونت العوالم كافة بشموسها وأفلاكها ونباتها وحيوانها وشعوبها ومدنياتها . الكل يتحرك ويسير فى نظام جميل متجهاً دائماً نحو الخير . فالله خلق العالم على أساس الحب والجمال . والله لا يخلق إلا الجميل ولا يودع مخلوقاته إلا الحب . إذ أنه سبحانه وتعالى المثل الأعلى للحب والجمال .

فتّشوا فى هذا العالم عن الدميم — بالمعنى الواسع لهذه الكلمة — فلن تقفوا له على أثر . إن الجمال يغمر كل شيء فى الوجود . تكاد تلمسه فى أتفه الكائنات وأعظمها كما سبق لنا القول . فهذه حشرة صغيرة ليس فيها ما يجذب نظرنا . إذا أمسكناها وتفحصناها فى عناية لرأينا من دقيق صنعها ونظام تركيبها ما يذهل العقول

وعددناها إحدى معجزات الجمال. وهذه القطعة الصغيرة من الحجر إذا فتتناها وتفحصنا دقائقها بالميكروسكوب وجدنا أنفسنا أمام عالم كبير يزخر بصنوف شتى من ألوان الجمال. فعابر السبيل الذى يمر بهذا الحجر ويركله استخفافاً به واحتقاراً له ما أحراه أن يأخذه ويقبّله إذ هو لا يقل عنه بهاء وجمالا.

وقبل أن نختم كلمتنا فى هذه النقطة نريد أن نذكر علاقة الفن بالغريزة الجنسية. فنقول: إن هذه الغريزة قوامها الجاذبية. وقد فسرنا الحب بأنه جاذبية أى أن ينجذب شخص نحو آخر تدفعه تلك القوة الروحية التى نسميها أحياناً بالفتنة. وبما أن غاية الفن هى الحب فالغريزة الجنسية قوامها الفن باعتبار أنها تفاعل أساسه الحب الذى هو إحدى غايات الفن والجمال. فأذا علمنا ما للغريزة الجنسية من الخطر فى حياتنا إذ يتوقف عليها نظام البشرية كله اقتنعنا بأن الفن عامل أساسى لحياة هذا المجتمع.

نستنتج مما تقدم كله أن العالم وما يحويه من كائنات حية أو غير حية مدين لعـــامل الحب والجمال بوجوده أولا ، وبتقدمه ثانياً .

ولنعد الآن إلى سؤالنا الأول : أنحن فى حاجة إلى الفن ؟ الخطأ الشائع أننا نظن أن الفن شىء اكتسـابى كالعلوم مثلا . والحقيقة كما بيّـنا أنه كائن فى نفوسنـا وهو جزء منا . فالمفاضلة بينـه وبين العلم مفاضلة غير مقبولة . فلحياة الانسان ناحيتان مادية وروحيـة . ومما لا شك فيه أن الناحيـــة المادية تشغل حيزاً هاماً من تفـكيره فلا يمكن بأى حال أن يهمل مطالبها لتعلقهـا بتيسير وسائل حياته . ولـكن للناحية الروحية مكانهـا الذى لا غنى عنه مطلقاً إذ منها يستمد وحيه فى إنشاءاته المادية، وعلى هذه الناحية الروحية يتوقف توفيقهونجاحه فيما يقدمه من اختراعات وما ينشئه من مؤسسات . وقد استطاعت البشرية أن تحيا الحقب الطويلة وتجتاز أشد الأهوال فى عصورها المختلفـة وهى فى غير حاجة إلى

الأمصال الطبية أو القناطر الهندسية . ولكنها لم تستغن لحظة عن الفن . فنحن إذا جردنا العالم من الفن فماذا يبقى أمامنا . لا شيء غير العدم والفناء .

فأحرى بنا وقد وضح هذا أن نصوغ سؤالنا على النحو الآتى : ما هى الوسائل التى نحتاج إليها لايقاظ روح الفن الكامنة فى نفوسنا وتنميتها وازدهارها .

الناس فريقان : فريق فنان ، وفريق غير فنان ، هذا باعتبار أن بذرة الفن مخلوقة فينا كما أوضحنا . ولكن بذرة الفن فى الفريق الأول يقظة نامية وفى الفريق الثانى هامدة منكمشة . ويمتاز الفنان على سواه من عامة الناس بأن شعوره بالحب والجمال قوى جامح ، فهو مرهف الحس ، دقيق العاطفة ، غير أن هذا ليس كل ما يمتاز به الفنان عن سواه . فهنالك شيء أساسى لا يستغنى عنه هذا الفنان وهو القدرة على التعبير عما يحس به فى أسلوب شائق وشكل حسن . فهذا محب صادق فى عواطفه يقف أمام محبوبته يشكو لها غرامه . فلا يجد عنده إلا كلمة :

« أحبك » يذكرها فى تكرار ممل يثير سخط محبوبته فى النهاية عليه فتقصيه عنها . على حين نجد محباً صادقاً فى عواطفه كالأول ولكنه يمتاز عنه بمقدرته على التعبير عن حبه فى أسلوب جميل أخاذ . فالأول مَثل الفنان الناقص . والثانى مثل الفنان الكامل .

وكلما قوى شعور الحب والجمال فى الفنان وعظمت قدرته على التعبير كبر فنه وعلا . وإنى حين أذكر الفنان لا أخص هذا الشخص المشتغل بالفنون الجميلة مثل الموسيقى والشاعر والمثّال ، بل أقصد كل إنسان نستطيع أن نلمس فى عمله أياً كان هذا العمل ، الشعور بالجمال والقوة فى التعبير عن هذا الجمال . فليس كل موسيقى فناناً . ولكن من الموسيقيين من هم فنانون وغير فنانين . أعنى عمال فن . وليس كل أديب فناناً . فهناك الأديب الصادق فى فنه والأديب المهرّج فى أدبه . ويمكننا أن نطبق هذه النظرية على كل فئة من فئات الناس مهما اختلفت أنواعها ودرجاتها . ففى فئة المزارعين نجد

المزارع الفنان والمزارع غير الفنان . فالأول هو الذى يزرع أرضه على طريقة من التناسق والنظام والعنساية تشعرك لأول وهلة أنه يحب الجمال وأنه استطاع أن يعبر عنه فى طرافة وابتكار . وهذا المزارع ناجح وسعيد فى حياته ، ما من ذلك بد . وبين فئة الموظفين نجد الموظف الفنان والموظف غير الفنان . فالأول هو الذى يعنى بعمله عنايته بأحب شىء عنده . ويجتهد فى تنميقه ولا يرضى أن يقدمه إلا إذا كان على الوجه الأمثل فى التفكير والصياغة . فهذا الموظف متقدم دائماً فى عمله ناجح دائماً فى حياته . وهذا الطاهى الذى يقدم لك طعاماً متقناً لذيذاً يشعرك بمسرة ورضا ، أليس هو فناناً ؟ أليس طهيه للطعام على هذا الوجه فناً جميلا . . وهناك فى حياتنا الخاصة — حياتنا المنزلية . نجد الزوج الفنان والزوجة الفنانة، وكذلك نجد الأزواج والزوجات غير الفنانين . أما الفنان زوجاً كان أو زوجة فهو الذى لا يقبل أن يعيش إلا فى مكان جميل ولا يحيا إلا

بأسلوب فى الحياة جميل . وليس لقلة النقود – كما يدّعى البعض – تأثير كبير فى ذلك . فربما دخلت منزلا لأسرة متوسطة الحال أو فقيرة فرأيته نظيفاً منسقاً فى ذوق جميل على بساطة أثاثه . فارتاح له نظرك وابتهج له قلبك . وقد يكون على العكس منه ذلك القصر المنيف المكدس بالأثاث الثمين حيث لا نظافة ولا نظام ولا ذوقاً سليما . حيث تتمثل فيه البشاعة فى أجلى مظاهرها .

قلنا إنه كلما قوى شعور الحب والجمال فى الفنان وعظمت قدرته على التعبير كبر فنه وعلا . فالفنانون إذن ليسوا درجة واحدة . ويمكننا تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

فنان ، ونابغة ، وعبقرى

فنحن نستطيع بوسائل خاصة أن نجعل من الانسان العادى فناناً ، وذلك بأن نوقظ فيه حاسة الجمال والقدرة على التعبير عن هذا الجمال . هذا الفنان هو الذى يعنينا أمره أكثر من الآخرين لأنه يكوّن السواد الأعظم

من الأمة . أما النابغة فيولد وحاسة الحب والجمال فيه مستيقظة . وله مواهب خاصة يعبّر بها عما يحس به . ولكنه يطلب منا أن ننمي له مواهبه ونوجهه إلى السبيل الأمثل . أما العبقرى فهو فى غير حاجة إلى معونتنا . ولا يدين لشيء غير عبقريته . والعبقرية مواهب قوية عظيمة فى قوتها تُخلق مع الفنان خلقاً . والفرق بين النابغة والعبقرى أن الأول مواهبه محدودة لا يمكنه أن يضرب فى طريق جديد ويبتكر ، أما الثانى فمواهبه لا حد لها وهى دائماً فى تجدد واضطرام . مشغولة بالخلق والابتكار

ولنعد الآن إلى الانسان العادى لنرى كيف نستطيع أن نخلق منه فناناً . أهم وسيلة نعتمد عليها فى عملنا هى أن نلتجىء إلى الفنون الجميلة الراقية ونستعملها أداة لتربية الذوق السليم . فاذا نشأ الطفل منذ ولادته — بل قبل ولادته — فى بيئة فنية انطبعت نفسه على حب الجمال لا يرضى عنه بديلا . ونقصد بالبيئة الفنية أن نحيط

الطفل بكل ما هو جميل ، فلا تقع عينه إلا على المنظر الجميل ولا تسمع أذنه إلا اللفظ الجميل والنغمة الجميلة ، ولا يلقى منا إلا المعاملة الجميلة التى تنطوى على الحنان والحب . ثم نعلمه منذ صغره فناً من الفنون الجميلة

نحن لا نزعم أننا نستطيع بهذه الوسيلة فى بضع سنوات أن نخلق شعباً فناناً بأسره . كأنما نخلقه بعصا ساحر . كلا ، فأن تربية الذوق الفنى فى شعب من الشعوب وجعله متأصلا راسخاً فى نفسه يحتاج إلى عصور . ولكن العصور فى عمر الانسانية شىء تافه . فأذا تذرعنا بالصبر والمثابرة وصلنا بلا شك إلى غايتنا . فعلينا من اليوم أن نضع الخطة الانشائية لهذا العمل الخطير ، نوجه نظر الآباء والأمهات وعلماء التربية والمشرفين على أمر التعليم عندنا بأن يصرفوا اهتمامهم الأكبر إلى هذه الناحية الهامة . ولنجعل من بيوتنا ودور تعليمنا معاهد للفن الجميل الراقى ، فيتعلم كل طفل ما يصبو إليه من غناء أو رقص أو نحت أو تصوير أو شعر الخ . وهذا التعليم الفنى يجب أن

يكون عاماً شاملا لجميع تلاميذ المدرسة ، فليس غرضنا تكوين فرق فنية خاصة نحصر اهتمامنا فى تعليمها وتدريبها ، لتقوم لنا فى نهاية السنة الدراسية ببعض مناظر من مناظر الاستعراض الرسمية أو إلقاء بعض القطع الموسيقية تنشدها فى المحافل . بل غرضنا أن يتلقى كل تلميذ من التلاميذ الفن الجميل كما يتلقى علماً أساسياً فى برنامج تعليمه يلازمه فى جميع سنى دراسته حتى العليا منها . أما مدارس الفنون الخاصة فلها شأن آخر ، فهى لمن يرغب أن يتخذ من الفن الجميل مهنة كبقية المهن يتكسب بها . ونحن فى حاجة قصوى إلى مثل هذه المدارس، فمنها يتخرج الأساتذة الذين نعتمد عليهم فى تعليم الفنون فى مدارسنا . وهى أيضاً مجال فسيح لمن يريد أن يتفرغ للفن الجميل ويهب له حياته بأكملها .

هذا ونحن لا نريد أن نتعرض لأنظمة التعليم فنفرض قوانين وأنظمة خاصة بتعلم الفنون الجميلة فأن هذا من اختصاص علماء التربية والمهيمنين على أمر

التعليم . فلنترك لهم الأمر يعالجونه بفطنتهم . ولكننا نوجه نظرهم إلى شيء جوهرى ، وهو أن الطالب الذى يتعلم فناً من الفنون يجب أن يعشق هذا الفن . لأنه سيكون هويته الكبرى فى الحياة . فنحن لا نريد طلاء من الفن بسيطاً إذا ترك التلميذ مدرسته لم يبق منه شيء . بل نريد قوة متمكنة فى نفس الطالب كشجرة راسخة جذورها كلما نما وكبر نمت وكبرت وآتت أطيب الثمر ، فالآباء والأمهات والمشرفون على تعليم الأطفال يمكنهم بدقة ملاحظاتهم لأطفالهم أن يتبينوا فيهم اتجاهاتهم الفنية فى أبسط مظاهرها، فيعيروها اهتمامهم ويجتهدوا فى تقويتها بوسائلهم المغرية فيجدوا من الطفل استجابة سريعة لهم .

وغرضنا من إعداد النشء إعداداً فنياً هو أن نُشعرهم بالحب والجمال . فتصفو أذواقهم وتتهذب طباعهم وتتسامى أرواحهم دائماً إلى المُثل العليا فيحيوا حياة راقية كلها سعادة ورخاء .

وهناك فكرة خاطئة نريد أن نهاجمها فى بحثنا هذا .

وهى زعم فئة من الناس أن حياة الفنان يجب أن تكون مثالا للتشرد . فلا نظام ولا جمال ولا نظافة فى ملبسه أو مأكله أو مسكنه . وهذه سبة عظيمة للفن يجب أن نتناصر على إبادتها من الأذهان . لأنها تبث فينا مذهباً من أشد المذاهب تقويضاً لسعادتنا .

الفنان هو الذى يقدّر الجمال ويحبه ويعمل له، فكيف يرضى بالدمامة مذهباً له فى حياته ؟ . الفن نظام واتساق ، والفنان هو الجميل فى لفظه ، الجميل فى ملبسه ، الجميل فى مسكنه ، الجميل فى نظام حياته .

نريد تكوين أمة فنية بأسرها تحس إحساساً عميقاً بحبها للجمال — إحساساً طبيعياً ليس فيه تكلف ولا ادعاء . نريد مثلا أن يشعر الشخص منا كيفما كانت درجته أن البصق فى الطريق جريمة ضد الجمال ، أو بالأحرى جريمة ضد الخير العام . ضد نفسه وضد بنى وطنه جميعاً . نريد أن يشعر الفلاح منا بدافع نفسى طبيعى أن المسكن الذى يعيش فيه لا يصلح أن يكون

حظيرة لبهيمته ، وهو المسكن الذى خلا من أى معنى من معانى الجمال . نريد أن يعلم الموسر منا أن حجرة النوم فى منزله يجب أن تضارع حجرة الزوّار نظافة وأناقة وترتيباً . وإلا فهو شخص متهم فى ذوقه منافق، يكذب على نفسه وعلى غيره .

يجب أن يزهى فى كل بيت من بيوتنا فن أو أكثر من الفنون الجميلة ، فرب مزمار شجى فى دار فلاح صغير أو بيان رخيم فى بيت موسر عظيم ، أو لوحة فنية فى قاعة من قاعات التعليم ، أعظم نفعاً وأبعد أثراً فى إصلاح الأمة وتقويم أخلاقها من تجريد جيش جرار من المعلمين . الفن أولا ، ثم التعلم ثانياً . لنبدأ بتهذيب الطباع وترقيق المشاعر ، وتحسين الأذواق وصقل النفوس . ثم نعلّم بعد ذلك حروف الهجاء . وهل نكون فى هذه الطريقة مخالفين الطبيعة فى عملها ؟ إن الطبيعة وهبتنا الفن أولا ، ثم عنيت بعد ذلك بأمر العقل والعلم .

علموا الناس كيف يجيدون الغناء والرقص ونحت التماثيل وما إلى ذلك من الفنون الأخرى الراقية . فانكم إن فعلتم ضمنتم أن تجدوا لكم شعباً متفائلا ناجحاً فى الحياة ، شعباً لا يقبل أى لون من ألوان الدمامة فى أى ناحية من نواحى حياته اجتماعية أو سياسية أو شخصية ، شعباً جعل غايته فى الحياة المثل الأعلى للجمال .

عم متولى

عم متولى

عم متولى بائع اللب ، والفول السودانى والحلوى ، بائع متنقل يعرفه سكان الحلمية وما يجاورها من الجهات ، يسير بعمامته البيضاء الطويلة وجلبابه الواسع الأكمام . حاملا على ظهره قفته العتيقة ، وينادى على بضاعته يعدد للأطفال أصنافها بلهجة السودانيين ، وبصوت قد أضعفه الفقر والهرم . نشأ الرجل فى السودان وحارب فى صفوف المهديين برتبة قائد فرقة ، فهو عظيم فى نفسه تعلوه الهيبة أينما سار . وقد عاش طول عمره وحيداً ، ليس له زوجة ولا بنون . والظاهر أنه فاقد الميل الجنسى .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة فى عطفة عبد الله بك ، لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصيرة عليها لحاف ووسادة باليين . وعلى الرغم من مظاهر فقره المدقع فأن النظافة تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يؤوب الرجل إلى بيته مضنى من شدة التعب ، وبعد أن يؤدى فريضة العشاء يشعل مصباحه الزيتى الضعيف النور ، ويجلس قبالة صندوقه ، ويخرج منه سيفاً قديماً هو الأثر الباقى من أيام عزه ، فيضعه على ركبتيه ويسبح فى تأملاته الطويلة ، مستعيداً ذكريات حيـاته الماضية . فاذا مامرت على خاطره ذكرى المهدى ، رفع بصره إلى فوق ، وأخذ يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة ، أيام العودة المنتظرة للمهدى — رافع لواء الدين — حيث يحل فى الأرض فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره ويمسح لحيته المبللة بالدموع ، ويأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم . ثم يقوم وقد علته هيبة القيادة ، فيخرج السيف من غمده ويلوح به هنـا وهنالك كأنه يحارب عدواً فى الهواء ، ويصيح منادياً الجيش أن يتقدم إلى الأمام . . . ثم يصحو من أحلامه فاذا الميدان حجرته المقفرة المظلمة ، وإذا الجيش خيالات وأوهام ، وإذا جلبة المهزومين وصياح المنتصرين سكون عميق يخيم على رأسه ذى العمامة الطويلة . فيتنهد

بحسرة وانكسار ويعيد السيف إلى مكانه فى الصندوق . ويقوم إلى عشائه فيتناوله ، ثم يدخل فراشه فى هوادة . ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يستغرق فى نوم جميل يحلم فيه بماضيه الأغر ومستقبله الحافل بعودة المهدى . وفى الفجر يقوم فيؤدى صلاة الصبح حاضراً ، ثم يقرأ فى أوراد الجلشانى وكتاب دلائل الخيرات ، حتى إذا ما أرسلت الشمس شعاعها مخترقا نافذته الضيقة ، قام متمهلا حاملا قفته على ظهره ، ووجهته « الحلمية » ليبدأ طوافه اليومى .

هبط القاهرة منذ خمسة عشر عاما . ولكنه لم يغير نظام حياته طول هذه المدة ، وقد هدمت منازل وأقيمت غيرها ، ومات أناس وكبر أطفال ، وعم متولى لا يعرف من القاهرة وضواحيها غير الجهات التى تعود أن يطوف بها . له محلات استراحة فى الطريق ، هى محطات يتناول فيها طعامه ويستريح . وقد خص اثنتين من هذه المحطات بمعظم أوقات فراغه . فالأولى زاوية للصلاة فى الحلمية

يتناول طعام الغداء بالقرب من بابها ، فاذا ما أتمه حمدالله طويلا ، ودخل الزاوية يصلي فيها وينام . أما المحطة الثانية فبالقرب من منزل نور الدين بك فى السيوفية ، يقصدها دائماً بعد صلاة المغرب . وهناك بجوار باب القصر يجتمع حوله لفيف من بوابى المنازل المجاورة ، وخدم منزل نور الدين بك ، فيتحدثون بحسرة وألم عن الاسلام فى غابر مجده ، وكيف حلت به الرزايا . هنا يقوم عم متولى مشرق الجبين ، فيروى للجميع حديث « الرجعة المقبلة » بلهجة متزنة مهيبة وأسلوب أخاذ قوى يأخذ بمجامع القلوب ، فاذا الجمع كله خاشع مبتهج ، يستمع بشغف لذلك الولى الجليل وهو يتحدث عن ظهور المهدى ، وتطهير الأرض من مفاسدها ، وعودة الاسلام إلى سالف عظمته . فى ذلك الوقت يخرج نور الدين بك من باب منزله متوكئاً على عصاه الثمينة ، فيتقدم نحو عم متولى يحييه ويلاطفه ، ويغدق عليه عطيته ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال العظمة والكبرياء .

ويأتى ابراهيم بك ، نجل نور الدين بك — وهو شاب مهذار لعوب ، فى السادسة عشرة من عمره — فيقترب من عم متولى ويصيح به قائلا :

— أما زلت تروى وقائع الحرب وحوادث المهدى ياعم متولى ؟

— أرويها وأفتخر بها . لقد كنت قائداً لألف عسكرى .

فيقهقه ابراهيم بك ملء فيه . ثم يعتدل فى وقفته متظاهراً بالخشوع ، ويزرر سترته ، ويصلح طربوشه ، ويرفع يمناه إلى رأسه مؤدياً التحية العسكرية ، ثم يخرج قرشاً من جيبه ويدفعه إلى عم متولى قائلا له :

— أرجوك أن تعطينى قليلا من اللب والفول السودانى بقرش صاغ . . . ياجنرال .

— ٢ —

ذهب عم متولى عصر يوم من الأيام الى منزل

نور الدين بك ، وجلس بجوار الباب كالمعتاد . فأخذت الأطفال تهرع اليه لتشترى من بضاعته ما لذ وطاب . وأخذ الخدم يفدون اليه من مختلف الجهات ويلتفون حوله صفوفا متراصة كالبنيان . حتى إذا انتظمت حلقة الاجتماع وقف عم متولى وقفته المعهودة ، وشرع يتكلم باسهاب عن ماضى الاسلام وحاضره ومستقبله . وبينما الجمع يستمع بشغف لأقواله الساحرة ، إذ أقبل ابراهيم بك وصاح بملء فيه قائلا :

— ياجنرال . . .

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحوّل الناس نظرهم غاضبين نحو الفتى المهذار يستوضحون الأمر . وتقدم ابراهيم غير مكترث لمن حوله . وأتم كلامه قائلا :

— . . والدى يريد أن يراك . فأرجو منك أن تتبعنى

فأسف الجميع لهذه المباغتة . وخرج عم متولى من الحلقة حاملا قفته على ظهره . ومشى مشيته الهادئة متجهاً

نحو البـاب بعد أن شيع أتباعه المخلصين بنظرة عطف واعتذار . وتبع ابراهيم بك إلى حديقة القصر . واخترقا معاً طريقاً طويلا ينتهى عند مدخل السلاملك حيث كان نور الدين بك ينتظرهما جالسا على مقعده الـكبير . فأقبل عم متولى مسلماً ، فأجلسه البك بجواره على الأرض بعد أن صرف ابنه . ومضت فترة صمت صغيرة كان يردد أثناءها عم متولى بصوت خافت شكره لله وصلاته على النبى . وأخيراً تـكلم نورالدين بك ، فأخبر عم متولى بعد مقدمة قصـيرة أن السيدة الوقور والدته كثيراً ما سمعت عن أخباره وصفاته ، فأحبت أن تتعرف إليه لتستمتع بأحاديثه الدينية الجليلة وتواريخه الشائقة عن الاسـلام . فاختلج قلب عم متولى سروراً لما علمه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنازل ووصلت إلى آذان السيدات المخـدرات . وقام نور الدين بك متجهاً نحو جناح الحريم وسار خلفه عم متولى . واخترق كلاهما ممشى عريضاً وولجا باباً ضخما يوصل إلى حديقـة السيدات ، ثم صعدا درجات شرفة

مظلمة . ودخلا ردهة عظيمة لم يكد يطأ عم متولى عتبتها حتى سحرته فخامتها ، فامتلأ قلبه بالروعة والخشوع . إذ أنه لم ير حتى فى قصر المهدى قاعة تماثلها اتساعا وفخامة . ولكن الردهة لم تكن من الفخامة بحيث تستدعى كل هذا الاهتمام . فأن الشيخوخة القاسية كانت قد عبثت بكل ما فيها . وفيما كان عم متولى مستغرقاً فى دهشته إذ طرق سمعه صوت نسائى ضعيف يرحب به . فالتفت ناحيته فألفى ربة القصر جالسة غير بعيدة عنه تدخن على متكىء كبير ، وبجوارها تابعة واقفة . فاذا بها سيدة مقوسة الظهر ، مجعدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينيها، وتلبس لبوساً قاتم اللون . فتقدم نحوها ، وقبل يدها النحيلة ، ودعا لها بطول العمر ودوام الخير . ولما تم التعارف بينهما تركهما نور الدين بك وخرج لحـــاله . وتكلمت السيدة فأظهرت لعم متولى سرورها بمقدمه ورغبتها فى سماع أحاديثه . فخفض الرجل بصره ، وأخذ يستجمع فى فكره رواياته وحوادثه . ثم رفع رأسه

وبدأ يفيض بما عنده بلسان طلق ولهجة مؤثرة خلبت لب السيدة . فلما أتم حديثه غمرته بعطاء كبير لم يكن يحلم به ، وأحاطته بضروب من الاجلال أذهلته وأخجلته . فخرج ولسانه يردد بتلعثم كلمات الشكر والولاء لها ولأسرتها . وما كاد يصل إلى حديقة الحريم حتى أقبل عليه رهط من الخادمات أخذن يحمن حوله ، ثم جعلن يتبركن به ما سحات أيديهن بجلبابه . وطلبن منهن أن يبيع لهن شيئاً من بضاعته . فجلس على الأرض مغتبطا وفتح قفته العتيقة . وأخذ يبيع لهن حتى نفد كل ماعنده . فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة شكراً لله على عطيته الجزيلة .

— ٣ —

منذ ذلك اليوم يقصد عم متولى دار نور الدين بك حيث يقابل فيها بالترحيب والاجلال . وتغدق عليه النعم الوافرة ، فتغير حاله من الفقر إلى السعة ، ومن التعب إلى الراحة ، ومن الضعف إلى القوة . فمشى مرفوع القامة

ممتلىء الجسم ، يجهر بصوت قوى النبرات . واستأجر غرفة حسنة الموقع جديدة الأثاث . واستبدل بطعام الجبن والكرات والفجل : الأوز والخضر كل يوم ، واللحم مرتين فى الأسبوع ، واستطاع أن يضخم عمامته ويطيلها ، وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفيه شالا من الكشمير الرخيص ، وأن يحتذى المركوب الاحمر اللامع ، ويتمنطق بالحزام الغابانى ذى الهداب الطويل . ثم ترك رويداً حرفة البيع ، وتخلص من حياة الطواف المتعبة . ونعم بالنوم الطويل الهنى . وجعل يتصدق على الفقراء بالعطايا الطيبة ، فعُرف بينهم بنصير البائسين. وأمكنه أن يذهب إلى المساجد فى أوقات فراغه ليحضر دروس الوعظ والارشاد ويلقيها بعد ذلك على مسمع من الهانم والدة نور الدين بك

وذاع صيته فى الحى ، فتهامس الناس به ، وجعلوا يتناقلون أخباره ؛ لقد اختفى شبح عم متولى بائع اللب والفول السودانى ، رجل الفاقة والضعف ، وحل أمامهم

مكانه ذلك الدرويش الكبير ، صاحب الكرامات الذى اختاره الله ولياً صالحاً ينشر رسالته بين الناس .

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار نور الدين بك منتظرين حضوره ، همس أحدهم فى أذن جاره قائلا باهتمام :

— ألا يكون هو المهدى المنتظر أرسله الله لخلاص الاسلام ؟ .

وانتشرت الكلمة بين الجمع فى سرعة البرق ، فاختلجت الأفئدة ، وخشعت الأبصار ، وأتم الرجل كلامه قائلا :

— . . . لقد شاهدت سيف النبوة فى صندوقه . ولما لمسته بيدى استطعت أن أشفى ولدى الذى كان على شفا الهلاك .

فتطلع الحاضرون باهتمام الى المتكلم . وأخذوا يسألونه فى الحاح وشغف عن سيف النبوة وكرامة « الدرويش » متولى . وكثر اللغط وازدحمت الحلقة بجموع جديدة جاءت تسأل : ما الخبر ؟ وظهر فى ذلك الوقت عم متولى

من بعيد . فهدأت الجلبة ، وأسرع القوم يشقون له طريقا بين صفوفهم المتكاثفة . وجاء « الدرويش » يسير بمشية متئدة لها جلال الأولياء . ويبتسم لمستقبليه ابتسامة حلوة عليها طابع الطهارة والتقى . فحنوا قامتهم رهبة وجلالا ! وازدحموا حوله يقبلون يديه وأطراف شاله . وتقدم الرجل الذى لمس سيف النبوة وقال له :

ـــ يامولاى . . يامنقذ ابنى من الهلاك . . . لقد عرفناك بالرغم من تسترك ، فلن تستطيع إخفاء شخصك الكريم عنا بعد اليوم . فأنت « عبد الله » أرسله المولى لهداية البشر . . . أنت خليفة النبى . . أنت المهدى المنتظر

فسرت فى جسم عم متولى رجفة كهربائية ، واعتراه نوع من الذهول . واستند على كتف الرجل خشية السقوط ، وجعل يردد بصوت خافت متقطع كأنه يحلم هذه الكلمات :

ـــ أنا المهدى . . . أنا خليفة النبى . . أنا الذى أرسلنى الله لهداية البشر .

وشعر بنشوة هيستيرية غريبة . فرمى بنفسه على الرجل وجعل يقبله ويبكى .

وبعد برهة وجيزة رفع رأسه ونظر الى الجمع ، فألفاهم سجداً من حوله . فخاطبهم بصوت مرتجف النبرات قائلا :

ـ لقد هدا كم الله لمعرفة شخصى يا أولادى .. ولكن الوقت لم يحن بعد لأظهر للناس جميعاً . إن القيامة قريبة والجهاد مقبل ، فلننتظر .

ومن ذلك اليوم اعتكف عم متولى فى حجرته لا يبرحها مطلقاً ، يمضى الوقت إما هادئاً يهيم فى وادى الأحلام والخيالات ، وإما هائجاً يحارب الأعداء بسيفه القديم ، ويصرخ من أعماق قلبه فى وجه الشياطين . وكان نور الدين بك يرسل اليه من يقدم له الطعام ويعتنى بأمره .

وظل عم متولى على هذا الحال بضعة أسابيع . حتى وافته منيته فى نوبة من نوبات هياجه . فبكاه جميع أهل الحى ، واحتفلوا بجنازته احتفالاً مهيباً . وبنى له نور الدين بك ضريحاً فخماً بقبة عالية .

* * *

وأصبح ضريح عم متولى قبلة الناس جميعاً ، يحجون اليه استشفاء من أمراض أجسامهم ونفوسهم . .

شرح الاربعين

ضريح الأربعين

— ١ —

ظهر الشيخ سيد على السكة الزراعية يمشى متمهلا وهو يلهث رازحا تحت ثقل جسمه الضخم ، يحرك إحدى يديه إلى الأمام مستعينا بها على السير كما يستعين النوتى بمجداف قاربه ، على حين تقبض يده الأخرى على طرف (زكيبة) ملقاة على ظهره بها مايجود عليه المحسنون به من طعام . وكان جلبابه القذر ـ كسوته الوحيدة التى لا يملك سواها ـ ينتفخ بهواء الريف القوى فيزيده ضخامة على ضخامته ، وربما علت به الريح عن جسمه ، فكشفت للرائى عن ساق مشققة كساق الفيل .

واتجه نحو القناة التى تستمد مياهها من الساقية ، وهبط عليها فى المكان المعد لسقى المواشى ، وأخذ يكرع بشره كما يكرع الحيوان العطشان .

وترك عم خضر الساقية ـ حيث كان مشغولا بمراقبة الثور ـ واتجه نحو الشيخ سيد ، وأمسك بيده وقبلها ، ثم قال له :

— ادع لى ياشيخ سيد . ادع لى ليفتحها الله فى وجهى ويشفى أم عبد السلام زوجتى المسكينة .

فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ غير واضح :

— يلعن أبوك انت وهى !.

فابتسم البستانى وأخذ يد الشيخ فقبلها مرة أخرى وهو يقول له :

— ربنا يسمع منك .

ثم تركه وعاد إلى الساقية ، وكان الرجل قد تمدد بجوار القناة متوسدا إحدى ذراعيه وتهيأ للنوم .

— ٢ —

كان الشيخ سيد — فى طوره الأول — عميد أسرته ، معروفا برجاحة عقله وطيبة قلبه ، محترم الجانب ، محبوباً من الجميع . وكان يعيش فى رخاء ، يملك هو وأخواه

عشرة أفدنة ، يشتركون فى زرعها ويقسمون محصولها بينهم بالسوية . وكانوا يسكنون كلهم فى دار أبيهم، وهى دار ريفية رحبة ، وسعتهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم

وعاش الرجل كذلك معززاً مكرماً حتى أشرف على الخمسين ، وحدث يوما أنه بينما كان عائداً بحماره إلى داره، إذ عثر الحمار فى الطريق فألقاه على الأرض، وأصاب رأسَه حجر غليظ أسال منه الدم غزيراً ، فحُمل على أثر ذلك إلى منزله ، وبقى طريح الفراش عدة أسابيع بحمى شديدة غائباً عن صوابه . ولما التأم الجرح وزالت الحمى أصبح سيد أبو علام غيره بالأمس ، عاد رجلا فاقد الذاكرة معتوها ، ولم يعد يصلح لعمل ما من أعمال الفلاحة ، فتركه أخواه فى فناء الدار يقضى وقته مع الأطفال يشاركهم لعبهم . ولما طال مرضه وعز شفاؤه داخل أخويه طمع الحياة ، وفكرا فى التخلص منه ، ثم قر رأيهما على طرده هو وعائلته وحرمانهم جميعاً ثروتهم . وكان للرجل ذرية كثيرة ، ولكن لم يكن بينها فرد يقوى

على الدفاع عن حقوقهم المسلوبة . وخرجت العائلة مطرودة من دارها ، والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم أو متاع من أمتعتهم ، واستقر بهم المقام فى دار مهدمة صغيرة من دور العزب . عاشوا فيها عيشة البؤس يكسبون شيئاً لا يكاد يقوم بأودهم .

واستمر الشيخ سيد على هدوئه وخموله لا يفارق الدار ، يمضى وقته إما مع الأطفال وإما نائماً بجوار الحائط لا يعرف ليله من نهاره ، وغلظ جسمه وترهل ، وتهدل شعره ، واشتبك بعضه ببعض وتلبك من الأوساخ ، فبشع منظره واحتجبت ملامحه القديمة — ملامح الرجل الذكى العامل ذى القوة والبأس — خلف ذلك القناع الوحشى ذى العينين الشاردتين المربدتين — كما يحتجب الضوء اللامع خلف الزجاج المترب القذر .

وكانت للشيخ سيد أم ضريرة تزوره فى الخفاء — حتى لا يعلم أخواه — وتحمل اليه الهدايا من طعام وكساء ، فكان إذا رآها هلل تهليل الأطفال - وهو يجهل من هى -

ويأخذ منها الحلوى والملابس بفرح وسذاجة . أما هى فكانت تجلسه بجسمه الغليظ على فخذها الواهية ، وتضمه إلى صدرها بحنو وشغف ، تطعمه بيدها الحلوى ، وتروى له حكايات الغول والشاطر محمد ، وإذا حل عليه النوم وسدته حجرها وغنت له أغانى الطفولة الجميلة .

— ٣ —

وماتت زوجة الشيخ سيد تاركة له أطفالا دون سن الرشد ، فعزعلى أمه العجوز أن ترى هذه العائلة بلاعائل ولا مدبر ، فلحقت بها وقاسمتها مضض العيش تعمل جهدها على تفريج ضيقها .

وكرالزمن ، وكبر الأطفال فصاروا شباناً وفتيات ، ووجد الشبان الرزق محدوداً فى تلك الجهة ، فرحلوا متفرقين إلى جهات شتى يناضلون فى ميدان الحياة الواسع . أما الفتيات فقبعن فى الدار ينتظرن الزواج ، ولكن الزواج كان يمر عليهن ساخرا لا يمد لهن يدا . وساءت أحوال العائلة يوماً بعد يوم — على أثر رحيل الأخوة

الذكور الذين كانوا يعولونها — فأخذت الأم الضريرة تفكر فى الأمر ، وقر رأيها أخيراً على الخروج بابنها المعتوه إلى الأسواق للاستجداء ، فأم ضريرة وابن أبله مسكين يحركان الشفقة ويستنديان الأكف

وخرجت الأم فى اليوم التالى تجر ابنها جراً لامتناعه عن الخروج ، وذهبت به إلى السوق حيث مكثا معاً يستجديان اليوم كله وعادا إلى الدار ومعهما بضعة نقود وبعض ما يؤكل .

وتكرر خروجهما كل يوم ، واعتاد الشيخ سيد أن يجول بمفرده فى البلدة تاركاً أمه على رأس الطريق ، فكان يطوف بالدكاكين والقهوات يكلم نفسه ، ويضحك ويشتم ، ويحرك يده حركات غريبة ، ثم يعود إلى أمه وفى زكيبته شىء ينتفع به .

— ٤ —

ودخل الشيخ سيد مرة دكان « أبى شوشة » الجزار وبادره بقوله :

ـــ لقد قلت لك من زمن يا حمار إن الخير كتير .
أهو واحد . . . اثنين . . . ثلاثة . . . الأردب القمح فى الدوار . . . والمـــاء بالراحة فى الترع . . . واحد . . . اثنين . . . . ثلاثة . . . ربنا يلعن جدودك ابن كلب صحيح . . .

ـــ أنا ابن كلب... وهل فعلت شيئاً أستحق عليه هذا ؟

ـــ فعلت شيئاً ؟ . . أبداً . الخير كتير يا ولد ، الخير كتير .

فابتسم ابو شوشه ووضع فى زكيبة الرجل قطعة من اللحم . وخرج الشيخ سيد يضحك ويكرر ماقاله للجزار . وجلس أبو شوشه فى الدكان وقد اعتمد بذقنه على يديه ، وأخذ يفكر فيما قاله الرجل . لقد عد أمامه . واحد اثنين ثلاثة ، ثم كرر جملته « الخـير كتير » فما معنى ذلك ؟ ألا يقصد قضية الأطيان ؟ إن الجلسة بعد ثلاثة أيام .

ومضت الثـلاثة الأيام ، وربح ابو شوشه القضيـة ـــ التى ظلت معلقة فى المحاكم سنين طويلة ـــ وكان

ابتهاجه بذلك عظيما ، فأقام ليلة أنس كليلة عرس ، وزع فيها الصدقات ، وغمر الشيخ سيد بمختلف الهدايا

وكان انتصاراً كبيراً للشيخ سيد تناقله الناس وأذاعوه ، فذاع صيته ، وقصده طلاب الحاجات من كل صوب يستوضحونه ما خفي من أمرهم ، فكان يخبط معهم خبط عشواء ، وساعده الحظ ، وأفلح فى هذيانه ، فهابه الجميع وأجلوه ، وأغرقوا عليه الهدايا والأموال .

— ٥ —

كان رفعت افندى ناظراً للزراعة التى يسكن عزبتها الشيخ سيد ، وكان رجلا أحمق متكبراً ، له زوجتان : الأولى امرأة ناهزت الخامسة والأربعين ، تسكن داره التى فى العزبة . أما الثانية ففتاة تبلغ الثامنة عشرة ، وتسكن داره البعيدة التى فى البلدة . وكان يميل إلى الثانية ، ويفضلها على الأولى ، فأوغر بذلك صدرها

ففى يوم من الأيام كان رفعت افندى جالساً على شاطىء الترعة أمام العزبة مستظلا بشجر الجميزة الكبيرة ، يتناول

طعام الغداء بمفرده ، ويقوم بخدمته خادمه الصغير . كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ، مقبحاً الأكل وصانعته . وجاء الشيخ سيد فى ذلك الوقت يتهادى فى جلبابه الفضفاض المنتفخ بالهواء يجدف بيده ويلهث ، وجلس بالقرب من رفعت افندى وأخذ يحدق فى طعامه وهو يتكلم بكلامه المبهم المختلط ، فلم يأبه له رفعت افندى وتابع أكله وهو يسب ويشتم بلا حساب ، فزحف الشيخ سيد اليه وأخذ يحرك له يديه ويصرخ فى وجهه ، فرمقه الافندى بنظرة شزراء مزمجراً ، وعيل صبر الشيخ سيد فمد يده واختطف لقمة من الصينية أخذ يلتهمها وهو يضحك ملء شدقيه ، فاستشاط رفعت افندى غضباً ، وقام ودفع الشيخ سيد محاولا القاءه على الأرض فلم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة ، وحسب أن الناظر يمازحه ، فمد اليه يده ودفعه ببساطة ، فانقلب الرجل على ظهره فى الوحل وهو يهدر كالثور الهائج . والتف حولهما جمهور غفير من سكان العزبة ، وهم يكتمون الضحك

والسخرية لما شاهدوا الناظر يتخبط في الطين . وسرعان ما احتل الشيخ سيد مكان رفعت افندى على المائدة ، وأخذ يأكل بشراهة وغبطة ، وقام الناظر وهو ينظف نفسه يلعن ويشتم ويهدد قاصداً داره . أما الشيخ سيد فبعد أن أتى على الأكل كله تمطى و تثاءب . وتمدد بجوار الترعة متوسداً زكيبته ، ونام نوماً عميقاً مصحوباً بغطيط مزعج .

دخل رفعت افندى منزله وهو يغمغم ويهدد ، وبعد قليل قامت ضجة في الدار مصحوبة بتكسير أثاث ، ثم هدأت ، وخيم على المكان سكون عميق .

وبعد أذان العصر بقليل سمع من منزل الناظر صراخ وعويل وندب .

واجتمع الناس حول الدار ، وظهر الشيخ حمزه خطيب الجامع ، صاحب اللحية الحمراء والوجه المجدور ، على عتبة الباب ، وقال بصوته الجهورى :

— ياعباد الله، لقدهلك الظالم. إنالله وإنا اليه راجعون

فهمهم الجميع يطلبون لأنفسهم الرحمة ، وأخذ الشيخ حمزة يشرح للناس « كرامة » الشيخ سيد فى هلاك الناظر الذى لم يراع مع الشيخ أصول اللطف والكرم ، وجعل يسهب لهم فى هذا القول ، وهو يمجد لهم الشيخ سيد ويثنى على أعماله ويبرهن لهم بمختلف البراهين على أنه ولى كبير من أولياء الله ، قادر على إهلاك الأشرار والبر بالصالحين الأخيار .

وكان لهذه الحادثة وقع كبير فى نفوس الحاضرين ، فأخذوا ينشرونها بين الناس فى حماسة ويقين .

— ٦ —

وكان للشيخ سيد عدة بنات تجاوزن سن الزواج . وحدث أن شاباً من عائلة معروفة فى البلدة شاهد كبراهن وهى تملأ الجرة من الترعة ، فأعجبته وتزوجها ، وكان له زوجتان غيرها لم تلدا له ما كان متشوقاً اليه من ذرية ، ولم يمض على زواجه من ابنة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى عين عمدة للناحية، ثم ولدت له زوجته الجديدة بعد أربعة

أشهر أخرى صبيين توأمين . وكانت مبـاغتة له لم يكن يتوقعها ، فعد زواجه الجديد كرامة عظيمة من الشيخ سيد . وانتشرت هذه الحادثة كسابقتها ، فأقبل وجهاء البلدة على منزل الشيخ يطلبون بناته زوجات لهم .

وعاش الرجل وأمه فى دارهما وحيدين ، ولـكنهما ظلا فى بحبـوحة من العيش . وآثرت الأم الاحتفاظ بكوخها ، ورفضت أن تنتقل بابنها إلى دار من دور أزواج حفيداتها إذ كانت متبركة به ، وكانت لا تخرج منـه إلا لتملأ الجرة من الترعة ، أو لتجلس على عتبة البـاب تستنشق الهواء فى هدوء وغبطة . أما الشيخ سيد فكان يخرج صباحا ولا يعود إلى الدار إلا فى المساء وهو محمل بأفضال المحسنين . كان يزور مختلف القرى ، ويجوب الأسواق ، يأكل حيث يريد ويستريح حيث يرغب ، محترم الجانب مهاباً من الجميع .

هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنين كاملة . . .

وأخذ جنون الرجل يتحول من جنون هادىء لطيف إلى جنون هائج خطر .

كان يدخل الأسواق كالزوبعة ، يخطف ويبعثر كل ما تصل اليه يده ، ويقصد إلى القرى فيمسك بالطيور فيخنقها ، وكثيرا ما ضرب الناس بلا سبب .

وأمسك مرة بالشيخ حمزه خطيب الجامع الوقور ، وأخذ ينتف شعر لحيته الشقراء ، ثم ركل الشيخ فى بطنه ركلة قوية كادت تقضى على حياته .

وبدأ الناس يتذمرون ، ولاحظوا أن شرور الرجل تتزايد ، وأنهم أصبحوا غير آمنين على أرواحهم . وأخذ الشيخ حمزه يهمس فى الآذان ، وكانت كلمة « الشيطان » تردد على الأفواه .

وحدث يوما أن شوهد الشيخ سيد يجرى صوب الساقية ، وبين يديه طفل يبلغ العامين ، والشيخ يعضه بأسنانه كأنه وحش منقض على فريسته ، وصراخ الطفل

يمزق الفضاء . وكان يجرى خلف الشيخ سيدبعض رجال من الضيعة يصيحون به ليترك لهم الطفل . ولـكن الشيخ سيد كان منهمكا فى عمله ، غير آبه بصياح أحد . واقترب من الساقية ، ولمعت فى ذهنه فكرة مروعة أراد أن ينفذها فى الحال . ولـكن والد الطفل لحق به وانتزعه من بين يديه. وكانت أم الطفل بالقرب من زوجها فأخذت ولدها فى لهفة وجزع وهى تبكى وتولول ، ثم عادت إلى المنزل لتضمد جراحه وتعتنى بشأنه . اما الزوج فبعد أن سلم الطفل إلى زوجته عاد إلى الشيخ سيد ثائرا لا يستطيع ضبط نفسه . والتحمت بين الرجلين معركة هائلة انتهت بفوز حسن سلام ، فترك خصمه بعد أن كال له الضرب ألوانا، وقام الشيخ سيد وهو يبكى ويئن ويتوجع ويجر نفسه فى إعياء عائدا إلى منزله .

أما حسن سلام فبادر بالرجوع إلى داره ليطمئن على ولده ، فوجده نائماً على حجر أمه نوما هادئاً ، فانتحى ركنا من أركان الدار ، وجلس يستعرض فى ذهنه ماوقع

له ، وكان يسمع بين فترة وأخرى خوار الجاموسة وهى في زريبتها تطلب العلف ، واعتراه وجوم غريب ، ودب فى قلبه الخوف ، وخشى أن يكون مصيره كمصير ناظر الزراعة ، وبدأ يلوم نفسه على تسرعه فى معاقبة خصمه . ويرى أنه كان الأجدر به أن يتركه وشأنه بعد خلاص ابنه منه . وازدادت مخاوفه وكثرت هواجسه ، واعتقد أنه لن تمر الليلة دون أن يقع له مكروه ، وشعر باضطراب نفسه ، واختلطت فى ذهنه المشاهد المزعجة ، فتمثل له الشيخ سيد يعزم تعازيمه السحرية ، وشاهد أشباح المردة من الشياطين ترقص أمام عينيه ، وتندلع من فمها ألسنة النار . وبيدها الهراوات الثقيله تلوح بها فى وجهه . وأحس بأنفاس حارة تهب عليه ، وشعر باختناق شديد ، فصرخ مستنجدا وهو يمزق ملابسه :

ـــ خلصونى منه . . . نجونى من الشياطين . . . يريدون قتلى . . . إنهم يهجمون علىّ . .

فقامت إليه زوجته مضطربة ، وسألته مابه ، فأمسك

بها وهو يشير لها إلى شياطينه ويكرر ماقاله قبلا ، فخرجت المرأة من الدار تولول وتقرع بيدها على صدرها ، فهرع إليها جماعة من الجيران يتقدمهم عم مبارك أكبر كهول الحى سنا ، وسأل عما حدث ، فأخبرته الزوجة بالأمر ، فتنهد الرجل وقال بصوت حزين : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل الدار بعكازه الطويل يسير مطأطىء الرأس يتمتم بالفاتحة على روح حسن سلام . . . فلما رآه حسن زحف إليه وأمسك يده بشدة وهو يقول له :

— سأموت ياعم مبارك سأموت .

فأجابه عم مبارك وهو يربت على رأسه :

— لا يستطيع انسان أن يرد قضاء الله ياولدى

فأخذ حسن سلام يبكى فى ألم وهو يلتصق بعم مبارك كأنه يريد أن يرد عنه غائلة الموت .

وبدأ عم مبارك يقرأ على رأس الرجل الآيات القرآنية التى يتلوها عادة على رؤوس الأموات . فتخاذلت قوى حسن سلام ، وارتمى على صدر الشيخ فاقد الوعى

ودخل الدار فى تلك اللحظة « أبو حجازى » فسأل من حوله قائلا :

ـــ ماذا جرى ياجماعه ؟

فأجابه عم مبارك على الفور :

ـــ حسن سلام . . . تعيش انت يابو حجازى .

فتقدم أبو حجازى من حسن سلام ، وفحصه مليا ، ثم قال وكله ثقة بنفسه :

ـــ كلام فارغ ، الرجل فيه الروح . هاتو ياجماعه القله

فأسرعت الزوجة « بالقلة » وتناولها أبو حجازى وأخذ يرش الماء على وجه حسن سلام ، ثم جعل يدعك يديه ورجليه بشدة حتى استفاق وفتح عينيه وهو يقول :

ـــ أنا فين ياجماعه ؟

فأجابه أبو حجازى ضاحكا :

ـــ انت فى دارك ياحسن . شد حيلك يا أخى . . .

ورنت فى أرجاء الدار زغاريد الزوجة ، واستبشر الناس فرحين بنجاة حسن سلام ، وسرعان ما انقلب

المأتم إلى عرس . وصرخ أبو حجازى بالزوجة قائلا :

— عاوزين نشرب الشربات «يابنت» حلاوة قيام حسن بالسلامه ، يا الله بللى السكر واعصرى اللمون.

وخرج عم مبارك مستاء ، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

وتنفس الناس الصعداء بعد هذا الانتصار الحاسم الذى ناله حسن سلام على الشيخ سيد ، فلم يعودوا يخشون شره ، وكانوا يمرون بداره يصيحون متوعدين شاتمين ، فرأت الأم الضريرة أن تحجز ابنها خوفا عليه من غضب الناس ، وكانت تخرج خلسة ـ وتقفل الباب خلفها ـ لتأتي له بالطعام والشراب ، وهدأت العاصفة شيئاً ما ، ولكن الشيخ سيد لم تكن تروق فى عينيه حياة المسجونين ، فكان يحاول فتح الباب ليخرج ، ثم يرتد خائباً وهو يصرخ ويبكى ويضرب رأسه فى الحائط حتى يدميه .

وحدث مرة أن استطاع الافلات من سجنه ، فذهب توا الى سوق البلدة وبدأ ينهب ويبعثر ما تصل إليه يده ، ولكن الناس تجمهرت عليه ، وأقصته عن السوق بعد

ضربه ، وخرج الرجـــل من السوق فزعاً كالفريسة الوحشية التى يطاردها الصيادون ، ورغب فى العودة إلى داره فاستقبله جمهور من فلاحى الضيعة وطاردوه بالطوب حتى أوصلوه إلى البيت .

منذ ذلك اليوم والشيخ سيد لا يكاد يفلت من داره حتى يعود إليها مثخنا بالضرب ، فبالغت أمه فى الاحتفاظ به فلم يستطع الهرب من سجنه ، واقتصر على الصراخ والعويل يملأ بهما جو الغرفة ، وسدت أبواب الرزق فى وجه « الأم » وتنكر لها جميع الناس حتى حفيداتهـا ، فكانت تجلس أمام بيتها تطلب الاحسان ، والناس يمرون بها ولا يقربونها وهم يستعيذون بالله من شر الساحرة الماكرة .

ولما يئست المرأة من معونة أحد اعتكفت فى ركن من أركان الدار مع ابنها منتظرة بصبر واستسلام قضـاء الله ، واشتد بها الضعف ، فتمددت على الأرض بثيابها المهلهلة تردد أنفاسها فى غير انتظام ولا استقرار ، وقد

تضاءل جسمها وجف ، وجحظت عيناها غير المبصرتين كأنهما تبحثان فى الظلام عن شىء يؤكل . أما الشيخ سيد فكان يدور فى الحجرة ثائراً وهو يقضم الطوب ، فاذا ما ناله التعب جلس بجوار أمه يبكى ، فتقبله وتلاطفه .

— ٨ —

وحدث أن استطاع الشيخ سيد أن يفلت من سجنه ، وكان الوقت ظهراً والشمس فى أوج حرارتها ، والسكون يسود العزبة ، والمكان مقفر والهواء خامل وجميع الدور مقفلة ؛ فى ذلك الوقت انطلق الرجل هائجاً كالحيوان الجائع يجرى هنا وهناك فى حيرة وارتباك ، وفُتح باب إحدى الدور وخرجت منه امرأة تحمل على رأسها قصعة من الطعام ذاهبة بها إلى زوجها فى الغيط ، وكان يسير بجوارها طفلها الصغير ، فشم الشيخ سيد رائحة الأكل ، فاستجمع قوته ، وانطلق يعدو نحو المرأة ، وكان يتعثر فيقع على الأرض ثم يقوم يعدو وراءها ليلحقها ، ورأته المرأة ففزعت فزعاً كبيراً ، واختطفت طفلها وحملته بين

يديها وأرادت أن تعدو بخافتها قواها ، ولحقها الشيخ سيد وأمسك بها ، فتعثرت فى أذيالها ، ووقعت القصعة وانتثر الطعام على الأرض ، ثم جعلت تصيح مستنجدة . أما الشيخ سيد فهجم على الطعام الملوث بالتراب وأخذ يحشو به فمه .

وهبت فى جو العزبة عاصفة هوجاء من تصويت النساء زادها نباح الكلاب . وسرعان ما انتشر بين الجميع أن الشيخ سيد منقض على طفل يأكله ، فجن جنون الناس وجاء الرجال على عجل بنبابيتهم إلى مكان الحادثة ، وتألبو على الشيخ سيد يضربونه بلا حساب .

وأخيراً صاح فيهم صائح : كفى أيها الاخوان وارفعوا أيديكم .

فكفوا عن الضرب ، وجعلوا يجففون عرقهم بأكمام جلابيبهم ، وتقدم أحدهم يتحسس الرجل بيديه ، ثم تمتم متعجباً ، والتفت إلى اخوانه فأقبلوا يقلبون الرجل معه ، وانتشرت همهمة بين الجميع عقبها صمت ثقيل .

وظهر الشيخ حمزة وصاح فى الجمع قائلا : ما لكم وجمتم كالأصنام ؟ هيا للعمل .

وتقدم أمامهم يوسع الطريق ، فشمر الرجال عن سواعدهم القوية ، وجروا الشيخ سيد كما يجرون ثوراً ميتاً والأطفال خلفهم يرقصون ويهللون ، وأخيراً وقف الشيخ حمزه وقال : هنا... وحفروا له حفرة متسعة عميقة، ورموا بالجثة فيها ، فسمع لها دوى غليظ مخيف ، ثم هالوا التراب عليها ، وعاد كل إلى عمله كأن لم يقع شيء

وما كاد طريق العزبة يقفر من المارة ، حتى ظهر على عتبة منزل الشيخ سيد شبح يزحف ويجر نفسه فى ضعف وتهالك ، واتجه نحو مكان الجريمة ، وأخذ يتحسس التراب الممزوج بالدم ، يشمه تارة ويفحصه بين أصابعه تارة أخرى ؛ وجسمه كله يهتز مرتجفاً . وبغتة صاح باختناق وجعل يلطم وجهه وهو يقول :

— آه يا ابنى ... قتلوك يا ابنى ... قتلوك يا حبيبى يا ابنى ...

وارتمى على وجهه يبكى ويتوجع

*

* *

ومرت الأعوام على هذه الحادثة ، وبنى الفلاحون ضريحاً للشيخ سيد عُرف بضريح الشيخ الأربعين أصبح كعبة الزوار من كل صوب وحدب ، يقصده من الناس من اشتد به الكرب أو نزلت به إحدى النوازل ، فيتبرك به متوسلا مستغيثا يطلب معونته ويرجو رضاه ..!

الشـــيخ جمعه

الشـــيخ جمعه

أعرف الشيخ جمعه منذ كنت طفلا صغيراً . ومنذ كانت الأيام لهواً ومسرة، منذ كانت الحياة بسيطة خالية من قساوة العقل . أعرف الشيخ جمعه منذ ذلك العهد . وهو على حاله لم تتغير ملامحه ولم يتبدل حديثه . أعرفه منذ كان يروى لى قصـة سيدنا سليمان وما جرى له مع النسر الهرم الذى عاش الف الف سنة . تلك القصة التى ما زلت أسمعها منه الآن بتفاصيلها ولغتها ، فأتذكر عصر الطفولة الجميل ، عصر السذاجة الطاهرة . لقد كبرت ونما عقلى ، فأصبحت أجالس الشيخ جمعه لألهو بوقتى معـه فأستمع لقصصه الخرافية بلذة مصحوبة بتهكم . وكنت فيما مضى أجلس قبالته وعيناى محملقتان فى وجهه ـــ ذلك الوجه المخطط بالتجاعيد ـــ أرقب شفتيه الهادئتين ترسلان الألفاظ فكأنها السحر . لا أقابله إلا مرة فى العـام ،

وذلك حينما أذهب للضيعة لأقضى بهاوقت الراحة . ولقد مرت السنون الطوال ، وتغير كل شىء على الأرض إلا الشيخ جمعه ؛ فهو هو الرجل ذو العمامة الحمراء والجلباب ذى الأكمام الواسعة . هو ذو الابتسامة العذبة والرأس المنحنى قليلا إلى الأمام . هو ذو العينين البراقتين والأنف الغليظ واللحية الرمادية الكثة . هو ذو الجبهة المزدحمة بالتجاعيد والبشرة السمراء الضاربة إلى الحمرة — حمرة السعادة التى تغذى روحه وجسمه . أجل هو هو الرجل ذو المشية المتمهلة ، والصوت الرفيع العذب ، والخيال العريض والأمل المطلق الذى لا حد له . هو الذى يقوم من النوم مبكراً ميمما صوب الجامع ليؤدى فريضة الصبح قبل شروق الشمس . وهو الذى يقضى معظم نهاره فى المصلى الواقع على شاطىء الترعة يتوضأ ويصلى ويسبح ويقرأ الأوراد .

فى ذلك المصلى أذهب اليه فأجلس بجواره أستمع له وهو يقص على حكايات السيد البدوى الذى حارب

الجيوش قبل أن يولد ، وقصة جذوة النار التي طارت من جهنم وحلّت بأرضنا منذ آلاف السنين ، فارسل الله عليها ماء البحور كلها لتطفئها وتمنع أذاها وهي مازالت متأججة كما كانت تنذر الناس بشر عظيم .

لا أنسى إلى اليوم تلك النظرة المملوءة بالاسترحام وذلك الوجه المستعطف الباكي وهو يقول :

ـــ إذا كانت جذوة واحدة لا تستطيع بحور العالم قاطبة أن تطفئها ، فكيف تكون جهنم التي أعدت للكافرين ؟

وكنت أحمل له في بعض الأوقات كتاب « ألف ليلة وليلة » وأقرأ له حكاية « السندباد » وحكاية « مدينة النحاس » . فكان يصغي في شغف إلى حديثي والابتسامة العذبة تسبح على وجهه . وإذا ماقرأت له قصة من قصص « هارون الرشيد » قال :

ـــ هذا ملك من ملوك الإسلام حارب الجن والأنس معا . .

وإذا ما رويت له من شعر أبى نواس أو عمر بن أبى ربيعة فى الغزل قال :

— هـذا شعر سيدى عبد الرحيم البرعى يمدح الحضرة الآلهية .

يسمع الشعر وهو مأخوذ بطلاوته ورنة رويه . مسحور بما فيه من المعانى التى كان يحملها دائماً على محمل المدح فى الله عز وجل . فيهتز رأسه ويلتوى بخصره حينما ترن الكلمة الخلابة الساحرة فى أذنه .

فاذا سافر الشيخ جمعه إلى مصر ليزور الأولياء كان مبيته فى منزلنا . وكثيرا ما كنت أطالبه بالاجابة عن أسئلة أعلم أنه يجهلها جهلا تاما، فكان يجيب عنها فى سذاجة وسهولة عظيمتين . قلت له مرة وكان الوقت مساء وقد أشرت له إلى مصباح كهربائى أمامنا :

— أنظر يا عم جمعه إلى هذا المصباح الجميل وكيف يشتعل وينطفىء بهذه السرعة الغريبة . ألا ترى ذلك دليلا ساطعا على تقدم الأفرنج ومهارتهم ؟

فمكث برهة ينظر إلى المصباح . ووجهه الأحمر المجعد لا يتحرك . ثم قال بعد تفكير لم يدم طويلا :

ـ اعلم يا بنى أن هذه أسرار يعلمها الشياطين ، ولا يعلمها المؤمنون . والشياطين توحى بأسرارها للكفرة . إن لهم الدنيا ولنا الآخرة .

ثم رفع رأسه ويديه إلى فوق ، وهو يقول :

ـ الحمد لله الذى جعلنا من المؤمنين .

لم يكن يفارق المنزل أثناء وجوده فى القاهرة إلا ليزور المساجد وقبور الأولياء أو ليشترى الصابون والبن والسكر لزوجته . وكان إذا دخل الجامع يهرع اليه الناس من كل صوب وحدب يقبلون يديه، ويلتفون حوله يستفتونه فى بعض المسائل الدينية فيجيبهم عنها فى طلاقة وسهولة .

لقد كان الشيخ جمعه فيما مضى خفيرا لجرن «الأوسية» يحمى المحاصيل من اللصوص ويقرع الصفيحة بعكازه الأثرى إرهابا للعصافير . وكانت له مظلة بناها من فروع الأشجار ، وأقامها بجوار شجرة النبق الصغيرة . يتفيأ

ظلالها فتقيه مطر الشتاء وشمس الصيف. هناك ينام نوما هادئاً طويلا معتمدا على الله فى حراسة الجرن. فاذا ماصحا وكان الوقت وقت الأصيل قصد إلى الترعة وجلس على حافتها يراقب نساء بلدته وهن يملأن جرارهن فجاذبهن أطراف الحديث.

هذا الرجل المتعبد الخاشع الذى يملأ الدين فراغ قلبه ليس متقشفاً ولا زاهدا للدنيا، بل له أوقات صفو كثيرة يمتع فيها نفسه. فيطرب للغناء والطبل، ويلتذ بسماع المزمار ذى الصوت الشجى. وعندما يحمى وطيس الغناء والمزمار والطبل يقوم الشيخ جمعه ونشوة الطرب تملأ رأسه، فيرقص بسكينة وصمت، ويده رافعة عكازه فى الهواء تلوح به يميناً وشمالا.

وللشيخ جمعه حديث فى الغزل والتشبيب بالنساء لا يمله السامع. فكثيراً ما أخبرنى بحوادث غرامه حينما كان فتى يجرى فى عروقه دم الشباب، وينبض قلبه بمعنى الحب. يحدثنى عن أيام شبابه، ووجهه مشرق بتلك الذكريات

الجميلة ، وعيناه البراقتان تلمع فيهما أحلام الفتوة والصبا، ويشرح لى لغة الغرام الصامت بتلك السذاجة الريفية الصافية . وإذا ماأتم حديثه تنهد من أعماق قلبه والابتسامة العذبة تتضاءل رويدا على شفتيه ثم يقول فى أسف وحسرة:

- « يا الله حسن الختام »

***

هذا هو الشيخ جمعه الرجل العامى الفيلسوف ، الذى يعيش باسما على تلك الأرض المكفهرة القاسية ، كما تعيش الزهرة فى الصحراء الجرداء الحامية ذات الأهوية السامة .

هذا هو الشيخ جمعه الرجل السعيد بأيمانه ، القانع بعيشته ، المنعم بخيالاته ، الرجل البعيد عن العلم المعقد والفلسفة السقيمة ، الرجل الذى تسعى إليه السعادة الحقيقية فيستمتع بها استمتاعا صحيحاً .

مهزلة الموت

مهزلة الموت

دخل الطبيب حجرة الخادم المريض — مصطفى حسن — مصحوباً بأغا الحريم . وكانت حجرة قذرة ذات كوة ضيقة تدخل منها خيوط ضئيلة من أشعة الشمس المتأججة الساطعة ، أثاثها قديم مهشم يمتاز بذلك السرير الجريد ذى الفرش القذر الممزق وتلك الخزانة التى لا يدل ظاهرها الوضيع على ما تحويه من تحف غالية .

لقد كان مصطفى حسن شديد التقتير على نفسه ، فاستطاع أن يدخر فى سنى حياته مائتى جنيه ذهباً كان يحرص عليها حرصه على روحه .

وجس الطبيب نبض المريض ثم كشف عن صدره وفحص رئتيه . وقال للآغا بصوت منخفض إنه لن يعيش أكثر من ساعتين .

ولم يكد يخرج الطبيب حتى فتح المريض عينيه وأخذ

يسعل باستمرار سعالا أنهك قواه .

كان مصطفى حسن مملوكا للمرحوم الباشا رب القصر ، اشتراه حينما كان صبياً يبلغ من العمر الثامنة ، وكانت تلوح عليه إذ ذاك مخايل الفطنة والنشاط ، فسرّ به الباشا وأمر بتهذيبه وتعليمه ، ثم أشار بتدريبه على أعمال الدائرة والزراعات . ولكن مصطفى حسن برهن لسيده فيما بعد على أنه لم يكن أهلا لهذه العناية الممتازة إذ لم يثمر تعليمه إلا ثمراً فاسداً . فاضطر الباشا أن يجرده من وظائفه السامية التى حباه بها ، وأهمله إهمالا مزرياً . ثم كلفه أخيراً بحراسة الباب حينما توفى عم مرجان بواب القصر القديم .

وظل الرجل قائما بحراسة الباب حتى توفى سيده ، فأحالته مولاته ربة القصر على المعاش رأفة به . وأصيب منذ عام بذات الرئة ، وكانت شديدة الوطأة عليه ، فانقطع كل أمل فى شفائه ، وهو الآن يلفظ نفسه الأخير .

وبعد أن شيع الأغا الطبيب حتى باب القصر ، قصد مولاته فى حجرتها الخاصة فى الطابق الأعلى ، فوجدها جالسة على السجادة تقرأ سورة «يسن» وبجوارها شيخة القرآن تستمع لها . فلما أحست بدخوله رفعت نظارتها الذهبية والتفتت اليه مستفسرة وقالت :

— ماذا قال الطبيب يا بشير أغا ؟

وكان بشير أغا بديناً تخاله زكيبة مكتنزة بالشحم . فلم يجب على كلام سيدته بشيء ما ، إذ كان يتنفس بشدة على أثر صعوده سلالم المنزل الكثيرة فاضطربت الهانم وكررت السؤال ، فمسح الأغا عينيه بيده متكلفاً الحزن الشديد ، فصرخت السيدة قائلة :

— هل مات مصطفى حسن . ؟

وكان الأغا فى ذلك الوقت قد نال قسطه من الراحة ، وعاد تنفسه إلى سابق انتظامه . فأسرع بالأجابة قائلا :

— لم يمت بعد يا سيدتى ، ولكنه مع الأسف يسلم الروح .

فانحدرت دمعتان على خدّى السيدة . ثم تمتمت بصوت فيه رنة الاستسلام .

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون

وتكلمت شيخة القرآن بصوتها الأجش قائلة :

ــ الفاتحة على روحك يا مصطفى حسن

وأخذ الثلاثة يقرأون الفاتحة . وأخرج بشير أغا ساعته فوجدها العاشرة ، فناجى نفسه قائلا :

ــ سيموت مصطفى حسن الساعة ١٢ . . . أى على مدفع الظهر بالضبط .

وخرج قاصداً غرفة المريض ليخفر بابها ، إذ أقام نفسه وارثاً شرعياً لمصطفى حسن يأخذ من تركته ما تشتهيه نفسه .

وسرعان ما انتشر خبر المريض الذى يسلم الروح ، فتقاطر الخدم من كل صوب وحدب على غرفته ، فوجدوا بشير أغا قد أحكم غلق بابها ، وجلس أمامه وبيده عصاً غليظة يضرب بها الهواء ارهاباً لمن يريد اقتحام الغرفة .

فأخذوا يسألونه بلهفة قائلين :

— هل مات مصطفى حسن ؟ هل مات ؟ . .

فكان يجيبهم فى كبر وترفع :

— إنه يسلم الروح

ولما لم يجد الجماعة سبيلا إلى الدخول تفرقوا، إلا قليلا منهم أحاطوا بالآغا يحادثونه .

وقصد الأطفال نافذة الحجرة وتكاثروا عليها ليروا كيف يموت مصطفى حسن . فقال أحدهم وقد احتل مكاناً طيباً أمام النافذة وبدأ يدافع عنه بشدّة :

— يا لطيف . إن بطنه قد انتفخت حتّى كادت تلاصق السقف

وقال آخر بعد أن سبّ المتكلم لمنعه إياه من التفرج بسهولة :

— عيناه تقدحان شررا . وفمه ينفث دما . النار . الدم . النار . الدم . . .

وترك مكانه هارباً وهو يكرر كلمته بولولة وفزع .

فتبعه الآخرون خائفين ، وهرولوا إلى الشارع حيث أخذ كل منهم يروى للمارين قصة الموت الرهيبة كما أوحتها لهم مخيلتهم .

وأخرج الأغا ساعتـه فوجدها الحادية عشرة فتمتم لنفسه قائلا :

ـــ بقيت ساعة تماماً على دنو منيـّتك يامصطفى حسن . سوف ترحل أنت إلى العالم الآخر وسوف أستحوذ أنا على ما يروق لى من تركتك الجسيمة .

والتفت إلى عم مدبولى « المقَدّم » وهو شيخ مسن عليه مظاهر الصلاح ، وأسرّ فى أذنه قائلا :

ـــ سيموت مصطفى حسن بعـد ساعة ، فماذا نفعل بتركته ؟ ألا يحسن أن نقسمها على الخدم .

فاهتز الشيخ سروراً . ولـكنه تظاهر بالقناعة قائلا :

ـــ افعل ما تراه حسناً ياسيدى

ـــ سأعطيك حذاء وثلاثة جلابيب وبطانية

ـــ أطال عمرك . . ولـكن ألا تنتقى شيئاً لنفسك ؟

ــ مطلقاً . . إن «كيس النقود» سارفعه إلى مولاتى

وسمعهما فراش القصر ، فدنا منهما ، وقال للأغا مستعطفاً :

ــ أرجو ألا تنسانى يا مولاى

ــ لن أنساك ياعثمان. سأعطيك مجموعة من المراكيب الجديدة . إن المرحوم كان يكنز المراكيب الحمراء الغالية

فسر عثمان بهذه الهمة وقال :

ــ أعطاك الله الخير والبركة ياسيدى . ولكن ألا يكون الشال الغابانى من نصيبى ؟

ــ بالطبع

فقبّل عثمان يد الأغا شاكراً . واقترب عبد القوى « السقا » وقد سمع بعض حديثهم فتكلم بصوت عال محتجاً على ما يريدون اقتسامه سراً :

ــ لقد خدمتُ المرحوم خدمات كثيرة . ألا يصيبنى من تركته شىء ؟

فصرخ الأغا مجيباً :

ـــ وهل تظن أنى نسيتك يا وقح ؟

فسر عبد القوى وتكلم بلطف وتملق :

ـــ لا حرمنى الله منك يا سيدى . إنى لا أطالب الا بأشياء بسيطة

أولا ـــ الحذاء الأسود المتين الذى كان للمرحوم الباشا

ثانياً ـــ الطربوش الجديد الذى اشتراه مصطفى حسن فى العام الماضى ، ولم يستعمله بعد

ثالثاً ـــ الشاهية التى اشتراها للعيد ، ولكنه لم يقربها حتى اليوم

رابعاً ـــ . . . . . .

ولكن عم مدبولى «المقدم» صرخ مقاطعاً السقا بقوله :

ـــ أنت لا تريد أن تترك لغيرك شيئاً . نريد أن نوزع التركة بالعدل . والخدم هنا كثيرون . ما الذى يبقى للشيخ عبد الحى الفقى « الراتب » والأوسطى على الطباخ وصبيه ، وسيد متولى « الزبال» و . . .

وسمع الجميع صوتاً ضعيفاً يشق طريقه بجهد من باب

الحجرة كأنه صوت خارج من القبر ، فانصتوا فاذا المريض ينادى ، فاستوى الأغا واقفاً وقد أخذ العرق البارد يتصبب من جبينه وقال :

ــ لقد دنت الساعة . إن مصطفى حسن يا جماعة يسلم الروح . هلم ندخل

وفتح الباب ودخل ، فتدفق الخدم خلفه، وتقدم الجميع نحو المريض وأحاطوا بالسرير . فرفع مصطفى حسن رأسه قليلا وأمسك بيد بشير أغا وسأله بألحاح وبصوت مرتجف قائلا :

ــ ماذا قال الطبيب . . . لقد سمعتكم تتكلمون عن تركتى . . هل قضى الأمر . .

فطأطأ بشير أغا رأسه ولم يجب ، فامتقع وجه المريض وسرت فى جسمه رجفة قوية ، واعترته نوبة سعال شديدة غاب على أثرها عن الوجود . وظن الجميع أنه قضى فصمتوا رهبة واجلالا . ثم شخصوا بأبصارهم نحو الأغا ، ففهم ما يرومون ، فدنا من عم مدبولى «المقدم»

وأسر فى أذنه بضع كلمات ، فامتثل الرجل للأمر ، واقترب من رأس المريض ومد يده تحت الوسادة يبحث عن مفتاح الخزانة . وفتح المريض عينيه فى تلك اللحظة ، فسحب عم مدبولى يده وتظاهر بترتيب الفراش ولكنه مال على المريض وقال له برقة وهدوء :

— أعطنى المفتاح يا مصطفى لأخرج لك جلبابا من الصوف وغطاء سميكا . . . أراك تنتفض من البرد

فتمتم المريض مجيبا :

— لا لزوم لذلك ياعم مدبولى . أريد الاحتفاظ بجلابيبى وأغطيتى للمستقبل

ثم أمسك بيد الرجل ، وجعل يهزها هزات عصبية ، وتقلص وجهه فغدا كوجه الأطفال وهم يبكون . وأخذ يتكلم كلاما متقطعا بصوت تخنقه العبرات قائلا :

— لن أموت ياعم مدبولى . . لن أموت . . أليس كذلك ؟ . أشعر بتحسن صحتى .

ثم فتح عينيه على آخرهما وحاول الجلوس على

سريره وهو يقول:

ــ أريد أن أترك السرير لأتمشى فى الحجرة . . . أشعر بقوة جديدة حلت فى جسمى . . . أتركنى يا عم مدبولى . . . لست من الضعف بالدرجة التى تتوهمها .

ولكنه شعر بانقطاع نفَسه ، وهوى رأسه على الوسادة ، وأخذ صدره يعلو ويهبط بحركات تشنجية مضطربة ، وجحظت عيناه ، وجعل فمه ينفتح وينطبق مستجديا الهواء بتوسل وإلحاح ، فيهتز جسمه كله على الأثر هزات شديدة . وأخيرا تدفق الدم من فمه وهدأت حركاته هدوءا تاما . فاقترب عم مدبولى وغطى جسم الميت بأكمله ، ثم مد يده بكل بساطة تحت الوسادة وأخذ المفتاح وسلمه إلى بشير أغا . فأصدر الأغا أمره فى الحال بنقل الخزانة إلى الخارج فتقدم الرجال وجعلوا يجاهدون فى سبيل نقلها ، واستطاعوا بعد مشقة أن يحملوها إلى الباب ، ولكنها أفلتت من أيديهم وسقطت متحطمة ، ورأى بعضهم أن يغتنم الفرصة فينال منها شيئاً

خلسة . ورآه الآخرون فمــدوا أيديهم جهاراً نحوها يرفعون ألواحها المتكسرة ويخطفون منها مايستطيعون خطفه . وحميت معركة النهب فاختلط الجمع بعضهم ببعض يقتتلون ، وارتفعت الجلبة فى سماءالغرفة ، جلبة الشتائم والضرب ، وخاف الأغا على كيس النقود — حصته التى اختص بها نفسه دون سواه — فأخذ يصرخ بصوته الارستقراطى صرخات متوالية ليكفوا عن السلب ، فلم يعره أحد انتباهاً إذ كانت غريزة الاستئثار قد ذكت فى قلوبهم فأصمت آذانهم وأعمت بصائرهم ، فانقلبوا ذئاباً جائعة تقتتل على فريستها فى جنح الليل . فلم ير الأغا بدًّا من العمل — وقد تيقن أن الوقت وقت أعمال لا وقت أقوال — فتقدم وشمّر عن ساعديه ، ودخل المعركة مزمجراً هائجاً ، وأخذ يدفع هذا ويركل ذاك وينطح بعضاً ويعض آخرين ! . وأخيراً وصل إلى الخزانة المحطمة فرمى بجسمه الهائل عليها ، فحجبها عن الأنظار ومدّ يده إلى مكان الكيس —

الذى كان يعرف موضعه — وأخرجه بلا مشقة . ومن ثَمّ قام وتركهم يقتسمون التركة كل على مبلغ قوته .

وقصد الأغا مولاته فأخبرها فى رفق بنعى المملوك ، وطلب منها أن تتكرم باعطائه نفقات الجنازة والدفن ، فناولته مبلغاً وافراً أخذه وانصرف تواً إلى غرفته . وبعد أن أحكم غلقها فتح كيس النقود — غنيمته من كنز مصطفى حسن — وأفرغ ما فيه فى حجره ثم أخذ يعد المائتى جنيه بشراهة وانفعال . ولما أتم العدّ دعك يديه طرباً ، وأدخل النقود فى خزانته باحتراس وهو يتمتم قائلا :

— أحسن من عينك يا مصطفى حسن . أحسن من عينك . كنت تقتر على نفسك ليتمتع غيرك بعدك . . .

وكان الخدم قد انتهوا من انتهاب الغنيمة . وحملوا أسلابهم وتركوا الميت وحيداً لا يؤنسه غير خزانته المحطمة الخاوية

* * *

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، خرجت جنازة المملوك الكهل مصطفى حسن ، يتقدمها جماعة من المشايخ العميان يرتلون بصوت أجش : لا إله إلا الله . . . ويسير خلف النعش جماعة الخدم وعلى رأسهم بشير اغا . وكان الجميع — ما عدا الأغا — يلبسون الملابس والأحذية الجديدة التى سلبوها من تركة المتوفى . الكل قانع بما أخذ ، إلا عبد القوى السقا فقد كان « يبرطم » لرفيقه قائلا :

— أأخدم المرحوم هذه الخدمات الكثيرة ولا ينالنى شىء يذكر ؟ . . انظر هذا هو عثمان البربرى لابساً الشاهية الجديدة والحزام الغابانى ، انظر إلى طربوشه الجديد ومركوبه الأحمر . وها هو ذا عم مدبولى ، ألا ترى كيف نال الجلباب الصوفى الجميل ، هذا غير البطانية الجديدة ودستة الجوارب . . . أما أنا فماذا أخذت ؟

فنظر إليه العريف بيومى قائلا :

— وماذا أخذت ياعم عبد القوى ؟

فصرخ عبد القوى السقا :

— لم أنل إلا الحذاء هذا الضخم . . كان المرحوم اشتراه بعشرة قروش من سوق العصر

فالتفت إليه الأغا وزمجر بشـدّة ، ثم بصق على الأرض وقال :

— اخرص ديوز . . . كرته . . .

بنت الجيران

بنت الجـــــيران

عباس فريد الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو عباس بك فريد نجل المرحوم عبد السلام باشا فريد فتى فى السادسة عشرة ، رزين وديع الأخلاق ، لم يخض بعد غمار الحياة ، حياة الحب والنساء . لعائلته قصر جميل فى رمل الاسكندرية اعتاد أن يقضى فيه أجازة الصيف من كل عام .

انتهت السنة الدراسية ، وانتقل عباس الى زيزينيا ، وبدأ حياة الاستحمام فى البحر والنزهة على الشاطىء وحضور حفلات السينما اليومية فى الكازينو . رحب عباس ككل عام بالرمل وما يحويه من مسرات . رحب بحجرته المطلة على البحر ، وبكشك الحمام القائم على الرمال ، حيث يمضى بجواره الوقت من الصباح حتى الظهر مع رفقة من اخوانه ، وهم بملابس الحمام يتناولون الحلوى

والفطائر من البـاعة الجوالين .

أطل عباس من نافذة غرفته وابتسم ، ثم تناول رواية قصصية يريد أن يتسلى بمطالعتها ، ولـكنه ما كاد يبدأها حتى رماها جانباً ، وأخذ يفكر فيما سوف يعمله فى الغد مع رفاقه ، لقد أخذوا اليوم القارب وطافوا فيه ببعض نواحى الشاطىء ، وتعرفوا بأصدقاء جدد تسابقوا معهم ، فكان هو الفائز .

وكان ينظر تارة إلى البحر المزبد ، وأخرى الى حديقة منزل الجيران ، وكانت تتنزه فيها فتاة أفرنجية رشيقة هى ابنة صاحب الدار ، اعتاد عباس أن يراها كل يوم كما اعتاد أن يرى أثاث منزله أو أشجار حديقته ، فلم يأبه لهـا وانصرف بنفسه كلها يفكر فى مشروعاته الصبيانية .

وفُتح الباب فجأة ، ودخلت والدة عباس فريد مكفهرة الوجه غضبى ، فقام الفتى مذعوراً ، وتقدمت أمه منه وأمسكت أذنه بيد من حديد ، وقالت :

— ألم أقل لك عدة مرات لا تنظر إلى النساء

يا وقح يا قليل الأدب؟ لماذا تطيل النظر إلى هذه الفتاة؟ من يدرى لعلك مغرم بها؟

فدهش الفتى واغرورقت عيناه بالدموع، وصاح قائلا:

— أنا؟ أنا مغرم بهذه الفتاة، أقسم بالله العظيم أنى لا أشعر بوجودها

— اخرس يا قليل الحياء..

وعز على الفتى أن يُتهم ظلماً، وألا تصدق والدته كلامه، فانفجر يبكى بشدة وهو يحتج.

وهدأت ثورة الأم شيئاً ما فأقبلت على ابنها تحادثه بلهجة لطيفة قائلة.

— إنى أريد نفعك يا عباس.. أريد شاباً كامل الأخلاق، قل الحق. لقد كنتَ تبتسم لفتاة الجيران، أليس كذلك؟

فمسح الفتى عينيه، وقال بتأكيد.

— مطلقا والله العظيم ، بل كنت أبتسم لأني تذكرت شيئا سرني ..

— أنصحك يا بنى أن تبتعد عن هذه الفتاة وأن تنتبه لدروسك

— ليس لى شأن بها ولا بغيرها .

— هذا ما أريده منك ..

وقبلت الأم ابنها وخرجت . ومكث عباس بمفرده فى الحجرة وهو يعجب لهذه الظنون الغريبة التى تخطر على بال والدته ، وينعى عليها تلك المعاملة القاسية التى تعامله بها ، وقد أشرف الآن على سن الرجولة . وتذكر تسامح زينب هانم مع ابنها مراد ، صديقه .

وفى صباح اليوم التالى استيقظ عباس مبكرا ، وخرج من المنزل قاصداً كشكه ليقابل إخوانه ويستحم معهم ، واتفق أن خرجت فتاة الجيران من منزلها فى تلك اللحظة حاملة حقيبة الاستحمام ، فما إن وقع نظر عباس عليها

حتى أسرع الخطا جازعا وقد تذكر ما وقع له أمس مع والدته ...

ومضى أسبوع ، وذهب عباس إلى الكازينو عصراً وقابل صديقه مراد ، فتصافحا وسارا يتنزهان ويتحادثان، وكانت الفتاة جوزفين صديقة زميله مراد تسير فى رفقة من صويحباتها ، فلما اقتربت جماعة الفتيات من الصديقين ترك مراد رفيقه واتجه نحوهن وانحنى أمامهن مسلماً ، ثم مكث برهة يحادث جوزفين ، وعاد إلى صديقه فوجده واقفاً تجاه البحر وهو مقطب الوجه . فبادره بقوله :

ـــ كنت أريد أن أعرفك بجوزفين .

ـــ أنا !؟

ـــ أجل

ـــ أرجوك ياعزيزى أن تمحو من رأسك هذه السخافات ، إننى رجل جد ، ليس لى فى هذه الأمور ، وأريد أن أحافظ على أخلاقى .

فنظر إليه مراد فى عجب وقال :

ـــ أنت عبيط جداً ....

ومرت فى هذه اللحظة فتـاة الجيران فى رفقة من صويحباتها ، فغمز مزاد صديقه وقال له :

ـــانظر ياعباس، هذه جارتكم. يالها من فتاة ساحرة ، آه لو استطعت التعرف اليها .

فأدار عبـاس وجهه بسرعة متجنباً مرأى الفتاة ، وتمتم قائلا :

ـــأسكت ، لعنة الله عليك وعليها ..

وتابع الصديقان سيرهما وهما يتضاحكان .

ولما عاد عباس إلى منزله ، قابلته والدته بوجه عابس، وبعد أن تناول العشاء وأراد الصعود إلى غرفته قادته إلى حجرة الجلوس وقالت له :

ـــ مازلت ياعباس تسـير على هواك ، ولا تتبع نصائح والدتك ..

فنظر إليها متعجباً وقال :

ـــ أنا ...؟

ـــ لقد حذرتك من النظر والاهتمام ببنت الجيران فلم تعمل بنصائحى ..

ـــ وماذا فعلت ؟

ـــ قابلتَها مرة وأنت ذاهب فى الصباح إلى الحمام ، ونظرت إليها نظرة غرام فابتسمت لك ..

فصرخ الفتى :

ـــ أنا ؟ أنا نظرت إليها نظرة غرام ؟

ـــ وقابلتَها اليوم فى الكازينو وأنت بصحبة مراد .. فابتسمتْ لك أيضاً . . أما أنت فصرت تضحك مع صاحبك الخبيث الذى يريد أن يتلف أخلاقك .

فصرخ عباس أيضاً وقال :

ـــ أنا ؟ . أنا ياوالدتى ؟ الأمر ليس كذلك .

وأخذ يقص عليها الحقيقة بأكملها . ولكنها لم تمهله ليتم حديثه ، وقامت فى عنف وهى تقول :

ـــ هذا آخر إنذار أوجهه لك . أتريد أن تحب بنت رومى ؟ .. حذار ! إنك تضيع مستقبلك ياعباس

— ما هذا ياوالدتى . أنا لا أحب أحداً، لا بنت رومى ولا بنت باشا . .

ثم ترك الحجرة غاضباً ، وقد اعتقد أن أخته الصغيرة هى التى تقولت عليه زوراً كل هذا ، فاعتزم أن يؤدبها .

وفى صباح اليوم التالى خرج عباس إلى الشرفة المطلة على البحر بعد أن تناول الفطور ، فوجد الست إقبال جالسة تشتغل فى حياكة ثوب لها، وهى امرأة معروفة بحبها للهو بالرغم من تقدم سنها ، ولها ماض حافل بالمغامرات الغرامية . فاقترب منها وقال :

— ماذا تفعلين يا ست إقبال ؟

— أرتق ثوبى المهلهل القديم .. إن جيبى أصبح كقلبى خالياً . .

ثم جعلت تنظر اليه طويلا نظرات غريبة وهى تبتسم . . فقال لها فى شىء من الغضب :

— لماذا تنظرين إلى هكذا ؟

— حقاً لقد تغيرت يا عباس بك

ـــ تغيرت ؟

ـــ أجل ، كبرت ، ولـكن ما هذا الشحوب ؟ ولماذا أنت صامت مشغول الفكر هذه الأيام ؟

ثم ابتسمت ابتسامة كبيرة وقالت :

ـــ إن قلبك كجيبك ملآن ، والحب كالذهب يشغل الفكر . . .

ورنت ضحكتها الخليعة ، فنظر اليها عباس مدهوشاً . ووضعت الست إقبال ما بيدها على المائدة ، وقامت إلى عباس وهمست فى أذنه :

ـــ أقسم بالله لقد أحسنت الاختيار . بنت كالبرلنته عيون فاتنة ، وقوام بديع ، والدم كالشربات . . .

ثم شدت على يده وقالت :

ـــ سيبك . لا تهتم بشيء . كل فتى فى سنك يعشق . . وما أحلى الحب فى هذه السن

وظهرت فى هذا الوقت بنت الجيران تتنزه فى الحديقة

فقالت الست إقبال فى انفعال وهى تكثر من الضغط على يد الفتى :

ــ هاهى . انظر . . ما أحلاها !.. يا بختك ياعباس ، لو كنت شاباً مثلك لحسدتك على حب هذه الفتاة . .

ثم واجهته وحدقت فيه وهى تقول :

ــ أشعر بغليان قلبك . . . إن عينيك تتكلمان . . .

وتركها الفتى عائداً إلى حجرته ، وهو يقهقه بالضحك ، وما كاد يقترب من الغرفة حتى طرق سمعه أصوات تتكلم فى داخلها ، وسمع الأصوات تذكر اسمه ، فدنا من الباب فى تمهل ، وأنصت فاذا بهما خادمتان تنظفان المخدع وتتكلمان .

قالت الأولى :

ــ لا شك فى ذلك . . فهو يحب بنت الجيران .

فقالت الثانية :

ــ ولكن والدته دائما توبخه

ــ ماذا يهمه ؟ . . أليس هو الآن فى السادسة

عشرة ، سن الحب والبجبجة . .

ــ فضلا عن أنه جذاب الملامح ... لقد أظهرت عدة فتيات اعجابهن الشديد به . . ثم بدأتا تغيران الحديث . فترك عباس مكانه ونزل إلى الحديقة وقد بدت على محياه أمارات التفكير مشوبة بشيء من القلق . . : وأخيرا شعر براحة غريبة . . وتاهت عيناه فى الفضاء وأخذ يستغرق فى أحلام شهية ، وكان يردد هامسا لنفسه ما قالته الست أقبال والابتسامة المرحة لا تفارق وجهه: «كل فتى فى سنك يعشق » . . .

واقترب من السور الحديدى الذى يفصل بيته عن بيت صديقته بنت الجيران ووقع نظره على الفتاة وهى تتنزه فى حديقتها ، فجعل ينظر اليها خلسة ممتعا نظره بجمالها ، ورأته الفتاة وابتسمت له فابتسم لها . . . وكانت لحظة من أسعد لحظات حياته . . .

.... ومرت أيام وهو يراها فيقنع من رؤيتها بتبادل التحية والابتسامات . .

ولكن حدث بعد ذلك أن لاحظ الخدم أن عباس كثيرا ما ينسل من غرفته ليلا بعدأن تنام والدته ويتجه نحو حديقة الجيران . فكانوا يتهامسون . . .

***

وبينما كان عباس يوما فى خلوة غرامية مع فتاته فى سيدى بشر ، كانت والدته جالسة مع صديقاتها تفتخر قائلة

— إن ابنى سيظل مثل الفتاة البكر ، طاهر الذيل ، لا يعرف شيئا من مفاسد هذه الأيام . . . .

الله يرحمه

الله يرحمه

كانت مقبرة سليم باشا فى قرافة الأمام الشافعى تعج بمختلف الفقهاء والطربية والفراشين، يعدون العدة لاستقبال المرحوم الباشا ضيفهم الجديد ، ويهيئون له مكانه الدائم بجوار زملائه الأموات . وكان السرادق قد نصب فى الحوش ، وصفت الكراسى بنظام جميل . وجلس الفقهاء حول القبر وأمامهم المصاحف يقرأون فيها مغمغمين . وكان السقا قد رش الأرض فى الداخل والخارج فبرد الجو الحار إلى حدما ، وهبت نسمة خفيفة داعبت الشجيرات الجافة العابسة . واجتمع فى الحارة حول باب المقبرة الخارجى فئة من الشحاذين كانوا يتزاحمون بمناكبهم ويتشاتمون . وكان « السقاة » واقفين صفين على جانبى الباب يضربون بصنجهم ويوزعون الماء على من يرغب ومن لا يرغب ، وهم يرددون قائلين :

— على روح المرحوم ياعطشان سبيل

وجلس الحاج إبراهيم — الفراش الذى أرسلوه من القصر ليراقب حركة الأعمال الجارية فى المقبرة — خلف الباب منكس الرأس ، يحدث نفسه فى حيرة وحزن . ومر عليه شيخ الطربية ذو العود الصلب والقوام الطويل وقال له :

— ماذا تفعل هنا يا حاج إبراهيم ؟ أهذا ما كلف لك القيام به .؟

فرفع الحاج إبراهيم رأسه وقال :

— اتركنى وشأنى . إن الهم يقتلنى

— إيه . الله يرحمه ويحسن إليه . هذه حال الدنيا

ثم خرج الطربى إلى الحارة واشتغل برهة بضرب الشحاذين وتفريقهم . وما كاد يعود إلى الحوش حتى رجع الشحاذون إلى مكانهم يزاحم بعضهم بعضا ويتشاتمون . ولم يغير الحاج ابراهيم جلسته ، وعاد إلى تفكيره المضطرب والتحدث إلى نفسه . وأخيراً قام وقد عول على أمر .

وذهب من فور إلى شيخ الطريقة ، وكان جالساً على قبر مهدم يجفف عرقه . فدنا منه وقال له :

— أريد أن أستشيرك فى أمر يا معلم . أمر يشغل بالى ويحزننى منذ أيام .

— وما هو ؟

— لقد طلقت زوجتى ثلاثاً . . . وأريد أن أردها .

فابتسم المعلم طويلا وقال :

— الأمر هين يا حاج ابراهيم

— وكيف ؟

— أن تستفتى أحد العلماء فيحل لك المسألة فى غمضة عين .

وسمعا ضجة وهرجاً ، فعلموا أن الجنازة قد وصلت . . ودخل الفقهاء الذين يتقدمون النعش ، واحتلوا المقاعد القريبة من الباب وهم ينفضون جببهم ، ويجففون عرقهم ، ويكحون ويبصقون . وسرعان ما اشتبكوا فى حديث مشوش يتعلق بنصيبهم فى الأجر والطعام . . ودخل المولوية بلبدهم الطويلة يتهادون فى حراملهم

الفضفاضة ، وأخذوا مكانهم فى صدر السرادق ومن ثم استغرقوا فى خمولهم . . وتفرقت طائفة حاملى المباخر والقماقم فى الحوش تطالب بالقهوة والسجائر وتنازع الفراشين . وأطلق الشحاذون العنان للجاجتهم . وبدأوا يحاصرون المشيعين ويفرضون عليهم الضرائب . وعلت صيحات السخط من كل جانب ، وخرج شيخ الطريقة يفسح الطريق أمام النعش ، وكان يضرب الجمع بعصاه الرفيعة ويرفع صوته بالشتائم . . . ودخل النعش بين هذا الصخب واللغط يشق طريقه نحو القبر ، والجثة ترتطم فى صندوقها كما ترتطم بقايا مركب غارقة على الصخور . دخل النعش بين صفين من « الحمليّين » الذين اشتدت بهم الحماسة فى ذلك الوقت ، فجعلوا يصيحون بالرحمة على الميت فى نغمات غريبة ويضربون صنوجهم ببعضها فى شدة وعنف .

وتبع النعش جماعة المشيعين . وكانوا متعبين يعلوهم غبار الطريق ، فدخلوا السرادق وانتشروا على مقاعده

حسبما اتفق . ومال شخص على رفيقه وأسر إليه نكتة ، فأخرج الآخر منديله ووضعه على فمه ليكتم به ضحكته .
ورفع شيخ مهدم رأسه ، والتفت إلى جاره وقال :
— الله يرحمه ويحسن إليه ، لم يترك فرضاً واحداً في حياته .

وكان جاره مستغرقا فى تبلد يشبه النعاس ، ففتح عينيه فى جهد ، ومسح لعابه المتساقط على فمه ، وقال :
— سيكون نصيبه الجنة بلا ريب .
ثم أطبق عينيه وعاد إلى خموله .

ومر رجل من حاملى المباخر أمام الجالسين ، وجعل يمسح فى تظاهر دموعه الكاذبة ،واشتغل (الطربية) بأنزال الجثة إلى مقرها الأخير ، وسُمعت للمعاول أصوات جافة مكتومة مصحوبة بشىء من الأنتحاب والأنين .. وظهر الحاج ابراهيم فى ذلك الوقت على مقربة من طائفة المولوية وجعل يدور بعينيه فيهم . وأخيرا وقع اختياره على واحد منهم ، رجل ذو لحية رمادية مهيبة ، ووجه أحمر غليظ ،

وكان منكس الرأى يتمتم بتسبيحاته ، فتقدم نحوه وناداه فى شىء من الحذر قائلا :

— يا سيدنا .

فلم يلتفت المولوى إليه ، وكرر الرجل النداء وهو يدنو منه . ورفع المولوى رأسه والتفت حوله ليرى من هو « سيدنا » فرأى الحاج ابراهيم ينظر إليه نظرة استعطاف فعلم أنه هو « سيدنا » فقطب حاجبيه الغزيرين ، وتحمس فى تسبيحاته . ودنا منه الفراش فى خضوع ، ومال عليه قائلا :

— يا سيدنا لقد طلقت زوجتى ثلاثا وأريد أن أردها . فما العمل ؟

فحدجه المولوى بنظرة غريبة . وأتم الحاج ابراهيم كلامه وهو يمسح عينيه المبللتين بالدموع ، وقال :

— فى عرضك يا سيدنا . .

وكانت حبات المسبحة تجرى بين أصابع المولوى فى سرعة عجيبة وأخيرا تكلم فقال :

— وكيف تريد رد امرأتك وهى طالق ثلاثا !

— أريد فتوى يا سيدنا .

ومد يده إلى المولوى وغمزه بقطعة من النقود . فأخذها الرجل فى هدوء ودسها فى جيبه . وبعدأن أطرق قليلا رفع رأسه وقال للفراش بلهجة متعاظمة :

— وهل كنتَ فى حالةغضبشديد أفقدكالصواب عند ما طلقت زوجتك ؟

— كنتُ لا أعى شيئا مما أقوله ومما أفعله .

— إذن لم يقع الطلاق شرعا . وزوجتك حلال لك

فأكب الحاج ابراهيم على يد المولوى يقبلها

وكانت حفلة الدفن قد انتهت ، وأخذ المشيعون يتفرقون . وخرج الحاج ابراهيم من المقبرة يجد فى مشيته قاصدا منزله ، وبينما كان يمسح آثار الدموع من عينيه إذ قابله أحد أصدقائه وبادره بقوله :

— مافائدة البكاء ياحاج ابراهيم ؟ هذا هو حال الدنيا

فلم يعره الحاج ابراهيم اهتمامه ، وتابع سيره فى اطمئنان وسرور . . .

القلم الأبنوس

القلم الأبنوس

— ١ —

خرج التلميذ زكى عبد الحميد من منزله صباحا قاصدا مدرسته . ولما اقترب من باب المدرسة وجد زملاءه مجتمعين حول عبد الرحمن بائع الحلوى والأدوات المدرسية . فذهب اليه واشترى منه « باستليا » ملأ بها جيبه . ولفت نظره — فى عربة البائع — مجموعة طريفة من أقلام الحبر المعروفة « بالأبنوس » فوقف أمامها يفحصها بنظره فى اشتهاء . وبعد تردد دنا من عبد الرحمن وقال له :

— أرنى قلماً من هذه الأقلام يا عبد الرحمن

فقال له الرجل :

— أتود شراءه ؟

— سأرى

— إنه لا ينفعك . بل ينفع المدرسين وتلاميذ السنة الرابعة

— دعني أره أولا

فأخرج عبد الرحمن القلم وناوله إياه . وأخذ زكى عبد الحميد يقلبه فى يده بسرور . وتذكر فى ذلك الوقت قلم فوزى افندى — معلم الأنجليزى — بحبره الأحمر . فلمعت عيناه وخفق قلبه . وأدخل يده فى جيبه ، وعد نقوده فالفاها خمسة قروش صاغا . فالتفت إلى عبد الرحمن وقال له :

— بكم هذا القلم ؟

— بعشرين قرشاً . ولكن لأجل خاطرك أنت بخمسة عشر فقط

— يمكننى أن أعطيك خمسة الآن والعشرة غداً

— لا بأس

— ولكن لا بد له من حبر أحمر

— هاك زجاجة بتعريفة تساوى عند غيرى نصف فرنك

ـ أشكرك يا عبد الرحمن . أشكرك ، أنت رجل طيب القلب جدا .

وأخذ القلم وزجاجة الحبر . وقفز نحو المدرسة والدنيا لا تسعه

— ٢ —

ودق الناقوس ودخل التلاميذ فصولهم . وما إن حلت فترة الراحة حتى نزل التلاميذ يتسابقون إلى اللعب فى فناء المدرسة . ولكن زكى عبد الحميد انزوى فى ركن من الأركان واشتغل بملء قلمه الجديد بالحبر الأحمر . ومرّ به ضابط المدرسة وقال له بلهجة متغطرسة :

— ماذا تفعل يا ولد ؟

فأسرع زكى وأخفى قلمه فى جيبه . وقال على الفور :

— لا شىء يا افندى

ورأى الضابط يدى التلميذ ملوثتين بالحبر ، فصرخ فيه :

ـ اذهب يا كلب إلى المغسل ، ونظف يديك فى الحال .

وقام زكى عبد الحميد مذعناً للأمر .

وفى فترة الظهر ذهب معظم التلاميذ إلى حوش الكرة يتفرجون على فرقة مدرستهم وهى تزاول تمرينها اليومى ، ولكن زكى قصد ركنه المختار ، واشتغل بالكتابة بقلمه الجديد .

ودنا منه أحد زملائه وقال له :

ــ أتلعب يا زكى ولا تذاكر القرآن؟

فرفع زكى عبد الحميد رأسه ، وكان مكباً على دفتره ، ونظر إلى زميله مدهوشاً وقال :

ــ وهل عندنا اليوم قرآن ؟

فقهقه صديقه وقال :

ــ أنسيت أن اليوم يوم الأربعاء ، وسيمتحننا الشيخ زكريا فى جزء تبارك . أظنك مشتاقا إلى مسطرته الحادة

— ما هذا المزاح ؟ امتحان القرآن غداً !

— بل اليوم . صح النوم

وتذكر زكى عبد الحميد أن اليوم يوم الأربعاء حقاً فارتجف، وتراءت له مسطرة الشيخ زكريا وورقة العقاب. فقام إلى صديقه وقال له :

— ألا تعيرنى جزء تبارك لأذاكر فيه ؟

— لقد تركته فى الفصل

— وهل ذاكرته ؟

— من أوله إلى آخره ...

وقام زكى عبد الحميد ليبحث عن زميل يعيره جزء تبارك . وجدّ فى البحث طويلا هنا وهناك ، ولكنه لم يعثر على ضالته . فذهب الى حوش الكرة وجعل يتفرج بنفس ممتعضة على جماعة اللاعبين

وأخيراً دق الناقوس ودخل التلاميذ قاعة الطعام . وتناول زكى عبد الحميد غذاءه بلا شهية . وبعد الانتهاء من الأكل عاد التلاميذ إلى فصولهم .

ودخل زكى حجرة الدرس مطأطىء الرأس صامتاً يقرض أظافر يديه ، وجلس أمام قمطره كالصنم ، وأصوات اخوانه التلاميذ وهم يذاكرون تطن فى أذنه طنينا مزعجا.

وظهر الشيخ زكريا على عتبة الباب ، فانقطعت الضوضاء فى الحال . وصرخ الأستاذ :

ـــ ما هذه الجلبة ياغجر :

ودخل كالنمر الغاضب وهو يقول :

ـــ جلوسا

ولمح زكى عبد الحميد فى يد الشيخ ورقة العقاب ، فارتجف وازداد اكفهرار وجهه . وقطع الأمل فى ذهابه عصر اليوم إلى حديقة الحيوانات حيث كان والده قد وعده بذلك ، وأعد نفسه للفضيحة بين الخدم .

وفتح الشيخ زكريا دفتر الأسماء ونادى التلميذ الأول ، وطلب منه أن يقرأ سورة « نون والقلم وما يسطرون » فتلعثم فى قراءته ، فترك الشيخ مكانه بعد أن تسلح بمسطرته ، وهجم على الصغير فأطار طربوشه ثم هوى على

رأسه ضربا فى وحشية غريبة ، والتلميذ يولول مسترحما .
وعاد الأستاذ إلى مكانه وقيد اسم التلميذ فى ورقة العقاب وهو يقول له :

ـ اقعد محبوس للغروب

وكانت عيون التلاميذ لا تفارقه وهم فى رعب كبير .
ورفع زكى يده إلى رأسه ثم مسح عرقه البارد المتصبب على جبينه .

ونادى الأستاذ التلميذ الثانى وكان جريئاً قوى الذاكرة فقرأ قراءة منتظمة سر لها الأستاذ فقال له:

ـ اقعد شاطر

واستمر الشيخ ينادى التلاميذ وهو بين ضارب بسلاحه ، أو محبذ بلسانه ، إلى أن جاء دورزكى عبدالحميد فطلب منه الاستاذ أن يقرأ سورة « الحاقة » فلم تتحرك شفتاه بكلمة . وأعاد عليه الأستاذ طلبه ، فظل زكى صامتاً كالتمثال . فقام اليه وصرخ فيه قائلا :

ـ اقرأ ياولد صورة الحاقة وإلا قتلتك بهذه المسطرة

فانفجر زكى باكياً ، وأخبر الشيخ بأنه نسى أن يأخذ «الجزء» معه أمس للمذاكرة . وأخذ يستعطفه ، ويؤكد له أنه لن يعود لمثلها مرة أخرى . فاحمرت عينا الشيخ زكريا ، وشمر عن ساعده . وأطار طربوش الطفل . ثم رفع يده ليهوى بها على رأسه ... ولكنه أنزلها هادئة إلى جانبه . ولم يمس التلميذ ... ومد يده الى جيب زكى بكل بساطة وتناول قلم الحبر منه دون أن يشعر زكى . وقال له :

— اقعد يا زكى ولا تعد إلى مثلها ، سامحتك اليوم فقط . .

فجلس التلميذ وهو لا يصدق بنجاته . ولكنه ذهل إذ رأى الأستاذ يفحص فى اهتمام قلمه الذى اشتراه صباح اليوم من عبدالرحمن . ومرت بخاطره ذكرى مبراة صديقه عزوز التى طواها الشيخ فى جيبه مرة ولم تعد .

ورجع الأستاذ إلى مكانه ، وعاد إلى عمله ينادى التلاميذ إلى أن انتهت الحصة . فقام مشيعاً بالاجلال

والاحترام . وما كاد يتوارى عن الأنظـار حتى طفق زكى عبد الحميد يبكى بحرارة . فسأله أحد رفاقه :

ـ أتبكى ولم ينلك أى عقاب ؟

فنظر اليه زكى بغضب ولم يجب ، وأمسك دواة الحبر الاحمر وقذف بها من الشباك وهو يعض يديه ، فضـج التلاميذ حوله يضحكون ...

الأجرة

الأجـــرة

دخلت أم لبيبه على سيدتها إقبال هانم ، وأخبرتها بأن الحوذى قد حضر وهو يطالب بأجرته ، فقطبت الهانم مابين حاجبيها ، ثم طابت إلى أم لبيبه أن تذهب وتخبره بأن يحضر بعد الظهر فخرجت المرأة مذعنة للأمر وما كادت تبلغ الرجل رسالة سيدتها حتى انفجر شاتما مهددا . وظل يطالب بأجرته فى قحة وغلظة .. وأخيرا انصرف وعاد بعربته إلى موقفه ، وقد عزم على استيفاء دينه بعد الظهر مهما كلفه الأمر .

لقد خرج الأسطى شحاته بأقبال هانم فى عدة نزهات طويلة لم يستوف أجرتها حتى الساعة . وفى كل مرة يأتى للمطالبة بدينه يقابل بالتسويف والتأجيل ، وللرجل أسرة كبيرة يعيش معها فى فاقة طاحنة

والأسطى شحاته فى العقد الرابع من عمره . وهو

رجل طروب بالرغم من بؤسه ، يسمعه الناس وهو محتل مقعـد الحوذية واضعاً رجلا على رجل يترنم بالمواويل الغزلية . وإذا ما مرت أمامه فتاة مليحة عوج طربوشه المهدم القذر ، وجعل يهز حذاءه الذى تطل منه أصابعه وينطلق فى مغازلتها فى حرارة واشتياق . ثم يتنهد فى أسف شديد وينهال على خيوله المـكدودة ضربا وشتما .

***

لم تأبه إقبال هانم بما وقع . وقامت إلى المرآة وجعلت تزين نفسها محاولة إخفاء شيخوختها المبـكرة تحت طلاء المساحيق . وكان وجهها مبقعاً تغزوه التجاعيد . ذا شعر أصفر فاقع انكشفت أصوله عن الصبغة فبـان له لونان متباينان يزيدانه بشـاعة . ولما أتمت زينتها تمددت على المقعـد الطويل وهى تتنهد ، وأخذت تقلب بين يديها مجموعة من الصور .

وإقبال من أسرة معروفة، كانت فى صباها مثال الوداعة والطهارة والجمال . فطوحت بهـا الأقدار فى يد زوج

مقامر سكير سيء السمعة ، أفسد عليها حياتها ونفسيتها . وانساقت بعد وفاته فى الطريق الذى رسمه لها ، وعاشت فى حمأة الرذيلة تنحدر يوماً بعد يوم إلى هاوية البؤس والتعاسة .

* * *

وعاد الحوذى بعد الظهر وجعل يصرخ مطالباً بأجرته فلم يكترث لأمره أحد . فترك العربة فى عهدة أحد الصبيان وأخذ يدق بشدة على الباب ، وكان غير مقفل . وأقبال — ساعتئذ — فى حجرتها ممدة على مقعدها الطويل ، وهى بغلالة النوم الشفافة ، مسترسلة الشعر ، تامة الزينة ، تستمع إلى صخب الحوذى مبتسمة . ودخلت عليها أم لبيبة ، فلم تدعها إقبال تفتح فاها ، بل قالت لها على الفور :

— وماذا تريدين منى أن أفعل ؟ ليس عندى نقود . فاصرفيه على أن يأتى فى وقت آخر .

وكان الحوذى فى ذلك الوقت قد اقتحم الباب ، ودخل

الردهة وهو يصيح فى قحة مطالباً بدينه ، فهرعت اليه أم لبيبة توبخه على جسارته ، وتحاول إخراجه . وظلا وقتاً يتشاتمان ويتراميان بقوارص الكلم . وبغتة ظهرت إقبال على عتبة باب حجرتها ، وهى فى أكمل زينة ، عارية القدمين والذراعين ، وقالت بكل هدوء :

ـــ ماذا جرى يا أم لبيبة ؟ وما هذه الغلبة ؟

فتكلم الحوذى مجيباً إياها :

ـــ أريد نقودى التى تودين أكلها على :

فابتسمت إقبال وقالت :

ـــ نريد أكلها عليك؟ ياسلام ! ليس هذا عشمنا فيك يا أسطى . .

وانتبه فجأة الأسطى شحاته إلى هذا الجمال العارى البادى أمامه وزاغت عيناه ، وذهبت عنـه حدته ، وقال وهو يبلع ريقه :

ـــ أنا معذور ياست ، صاحب عيال . .

وجعل يحملق بعينيه فى جسمها الأبيض الناعم . فلما

رأته متردداً شارد اللب ، قالت له بنعومة :

ــ ألا تصدقني يا أسطى بأن حقيبتى خالية من النقود الآن . تعال أريك إياها .

ودخلت الى حجرتها المواجهـــة الى باب الردهة ، وتقدم الأسطى شحاته حتى وصل الى باب هذه الحجرة . وكانت الستائر مسدلا نصفها ، والضوء خافت ورائحة العطر تملأ الجو . فأحس بيقظة غريبة فى مشاعره ، وكأنه انتقل الى مكان سحرى كله أسرار وأحلام . وأخذ يحدق فى إقبال بنظر شره ، وهى تسير جيئة وذهاباً أمامه نصف عارية تبحث عن حقيبة النقود . وتذكـر الأسطى شحاته الحسانَ من النساء البيض اللاتى كن يركبن عربته مع عشاقهن ، واللاتى شغف بهن طويلا ، وظل يمنى النفس بهن ، فلم يرجع إلا بالخيبة والحسرة . . . وعثرت إقبال على الحقيبة ، فدنت منه ؛ وقالت له بصوت وديع وهى تفتحها أمامه :

ــ هأنت تراها خالية من النقود ... ألا تأتى فى الغد ؟

ونظرت اليه نظرة استعطاف منطوية على دلال كبير . فلمعت عينا الأسطى شحاته وانفرجت شفتاه عن ابتسامة غريبة ، وقال :

ـــ لا أستطيع الخروج من هنا ياهانم . دخول الحمام مش ذى خروجه !

فابتسمت أقبال ووقفت أمامه برهة تحدق فيه . ثم ارتمت عليه بغتة وقبلته فى فمه قبلة طويلة . فأحس الرجل كأن الدنيا تدور به وسرت فى جسمه رجفة كهربائية لم يستطعم مثل لذتها فى حياته كلها . . . . . .

* * *

ولم يعد الأسطى شحاته يطالب إقبال هانم بدينه بعد اليوم . . .

أب وابن

اب وابن

استيقظ عبد الخالق من نومه فى الساعة العاشرة صباحاً — أى بعد خروج أبيه من المنزل — وتناول الفطور وهو يصخب ويشتم. وذهب الى المطبخ، فضرب الجارية مبروكة لأنها لم تحبس القط فلفل وتركته يضايقه وقت الأكل. ثم قصد الى والدته حيث كانت تشرب القهوة وتستدفىء بنار الموقد. وجلس بجوارها صامتاً مقطب الوجه، ثم أخذ يتنهد، فلاطفته أمه على رأسه وهى تبتسم وقالت.

— أنا أعرف ماالذى يشغل بالك يامكّار.

— ولكنك لاتريدين أن تعملى لى شيئاً .. أنت لاتحبينني يا أماه. لاتحبينني مطلقاً

فأحاطته بيديها وقالت:

— أتجرؤ أن تتفوه بمثل هذا القول ياناكر الجميل؟

ـــ إننى أقول الحقيقة . لو كنت تحبيننى حقاً لأنهيت مع والدى هذا الموضوع .

فتمتمت الأم قائلة :

ـــ ولـكنك تعلم ياعبد الخالق أن أباك . . .

ثم غضت من بصرها ، ولم تتم جملتها . وأخذت تعبث بطرف ثوبها . وتكلم عبد الخالق فى حدة فقال :

ـــ أقسم بالله إنك إذا لم تفاتحى أبى وتقنعيه بهـذا الزواج اليوم فلن ترى وجهى بعد الآن ، ولن تسمعى عنى إلا أسوأ الأخبار .

فأمسكت المرأة برأس ابنها وحدقت فى وجهه بقلق ، وقالت :

ـــ ماهذا الكلام ياعبده ؟

ـــ كلمة واحدة . إذا لم تكلمى أبى اليوم وتنهى معه هذه المسألة ، فسيصلك نعيي غداً . . سوف أريحكم جميعاً من وجهى وأريح نفسى من هذه العيشة التى لا تطاق .

ـــ عبده . عبده . اخص عليك ياعبده !

وصمت الابن وهو يحدق أمامه بعيون نارية ، وكانت الأم تلاطفه على ظهره محاولة تهدئة غضبه .

ودخل الحجرة فى ذلك الوقت القط فلفل — وهو قط أسود اللون غزير الشعر بأجفان مسلوخة — يعزه محجوب افندى والد عبد الخالق .

فما كاد يقع بصر الفتى عليه حتى تناول حذاءه ورماه به وهو يصرخ قائلا :

— والله لأميتنك يوماً من الأيام يا ابن الكلب .

فخرج القط يجرى قافزاً وهو يموء مواء الألم والذعر . وقام عبد الخالق متهيئاً للخروج ، فقالت له أمه فى عطف ومذلة .

— الى أين ياعبده ؟

— الى جهنم ياستى . أتريدين أن تحبسينى فى البيت معك كمبروكة وفلفل ؟

— وهل اعترضت على خروجك يابنى ؟ اذهب وفرفش نفسك وانبسط .

ــ معلوم ، أخرج وافرفش نفسي وانبسط . . أما القط فلفل فأقسم بالله العظيم إنى سوف أميته . إنه يعيش فى منزلنا كالأمير لا يجسر أن يكلمه أحد على حين أعيش أنا كالكلب الذليل .

ــ إنه قط أبيك ياعبدالخالق ، وانت تعرف معزته له .

فصرخ عبد الخالق :

ــ أبى . لعنة الله على أبى وعلى جدوده وعلى جميع من انتسبوا له .

فنظرت اليه أمه فى عجب وخوف ، وتمتمت :

ــ عيب يا ابنى عيب .

ــ آه، لاتردى على . لئلا تكون العاقبة وخيمة عليك

فأجابت صاغرة :

ــ حاضر يابنى .

ووقف عبد الخالق أمام المرآة ، وهو يصلح طربوشه ويفتل شاربه الصغير ويضمخ شعره بعطر والدته ويدقق النظر فى نفسه معتزاً بقوامه الممتلىء وعضلاته المفتولة ،

ثم استدار وقال لها فى لهجة هادئة لاتخلو من أمر :

ــ إيدك على ريال .

فتنهدت المرأة ، وأخرجت له قطعة النقود من عبها بلا كلام . فأخذها منها وخرج يسرع الخطا نحو السلم . وسارت هى خلفه ورفعت صوتها قائلة :

ــ انزل السلالم على مهلك ياعبده . الدهليز مظلم . حاسب على نفسك ياابنى ، ربنا يحرسك وينجيك .

نزل عبد الخالق الى الحارة وجعل يخطر فيها جيئة وذهاباً فى إعجاب وزهو ، وعيناه لاتفارقان منزل أم محمد الدلالة . وكان يصفر ويطوح بعصاه فى يده . وبعد حين خرجت من منزل أم محمد فتاة نحيفة الجسم تأتزر بالملاية اللف ، وتحتذى حذاء أبيض وجورباً خفيفاً بلون الحذاء، وصدرها مكشوف تتلألأ عليه حبات القلادة . كانت متزينة على الطريقة البلدية . حواجب مزججة بالخطوط، وعيون ملؤها الكحل . وخدود يلمع عليها «حسن يوسف» كأنها جمرة من نار . وكانت تسير مترنحة الأعطاف فى

خلاعة ظاهرة ، وتنظر حولها فى ابتسام ودلال . فما كاد يراها عبد الخالق حتى هدأ من سيره ، ونظر اليها مبتسما وتنحنح . فضحكت ضحكة خافتة ، وتابعت سيرها غير ملتفتة اليه . فدنا منها وقال لها فى صوت منخفض :

— إلى أين ؟

فرمته بنظرة كلها مداعبة وغنج وقالت :

— الله . وما شأنك بى ؟

— ما شأنى بك ؟ يا سلام يا فايقه . غداً سيكون لى معك شأن كبير . .

ثم كح طويلا وقال :

— المسألة ستنتهى عن قريب . كل شىء يسير وفق المرام .

فطأطأت الفتاة رأسها متظاهرة بالخجل ولم تجب . وعاد عبد الخالق إلى الكلام فقال .

— لن تمضى أيام حتى تكونى لى يا فايقه .

وأمسك يدها وضغطها فى شغف ، فقالت له وهى

تتظاهر بسحب يدها منه :
ــ الله . ألا تخشى أن يرانا الناس ؟
ــ لا أخشى أحدا . أنت معبودتى . أنت حياتى . . أنت . .
فقاطعته :
ــ يادى النصيبة . أترك يدى لئلا يرانى أحد من معارفى .
فترك يدها وهو يضحك . ثم قال لها :
ــ هل فاتحت أمك فى الموضوع ؟
ــ أبداً . . ولكنها فاهمة . . . إننا منتظرون زيارة من والدتك .
ــ ستزوركم غداً
ــ وهل وافق أبوك :
ــ أبى . . . وما دخل أبي فى هذه المسألة ؟
فطأطأت رأسها ، وجعلت تداعب طرف ملاءتها ، وقالت متمتمة :

ـــ والله خايفه أبوك يفسد الحكاية

فأجابها فى حدة .

ـــ يقدر . . !

فنظرت اليه نظرة فيها حزن واشفاق ، فارتجف عبد الخالق وقال لها بصوت خشن :

ـــ أنت واهمة

وكانا قد وصلا إلى الشارع العمومى فاضطرا أن يفترقا . وركبت فايقة الترام من المحطة القريبة، أما عبد الخالق فعبر الشارع إلى الحارة المقابلة ، وسار فيها وهو مطرق الرأس متجهم الوجه مستغرق فى تفكير عميق . وبينما كان على هذا الحال إذ شعر بيد وضعت على كتفه ، فالتفت فرأى صديقه دسوقى يبتسم ويقول :

ـــ الله . ما هذه السحنة المقلوبة يا عبد الخالق ؟ وفى أى شيء تفكر ؟

ـــ أنا ؟ لا شيء . . .

ـــ كيف تقول لاشيء ؟ والذى يراك لا يعرفك

ــ يا سلام

ــ عاشق والا مفارق ياسى عبد الخالق .

ــ لا عاشق ولا مفارق ياسيدى

ــ والبنت فايقة ياحظ ؟

ــ أتركنا من هذا الموضوع ، اعمل معروف

ــ المسألة بسيطة لاتحتاج إلى كل هذا . ماالذى يمنعك من قراءة الفاتحة الآن . ثم الدخلة لما ربنا يفرجها

ــ أنا لا يعوزنى المال يادسوقى . والدتى متكفلة بكل شيء . انما . . .

ــ . . . المسألة متوقفة على أبيك . . .

فخفض عبد الخالق رأسه وجعل ينكت الأرض بعصاه . وأتم دسوقى كلامه وقال:

ــ أقول لك الحقيقة . إن أباك زاد عن الحد . لو كنت منك لم سألت عنه . كن رجلا يا شيخ . بلا كلام فارغ .

فرفع عبد الخاق رأسه ، ونظر إلى صديقه بعينين

كأنهما بقعتا دم ، وتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة .

وبعد صمت ثقيل تكلم دسوقى فقال :

— أتعرف من الذى يحرض أباك عليك ؟

— من ؟

— الأسطى بيومى الحلاق

— ابن الكلب .. !

— ما رأيك فى الترصد له الليلة وضربه علقة ؟

— فكرة صائبة

— يمكننى جمع الأخوان هذا المساء . وننتظره فى نهاية الحارة وهو عائد بعد قفل الدكان

وسار عبد الخالق ودسوقى وقد أخذ كل منهما بيد صاحبه وهما يتهامسان

* * *

وفى المساء عاد عبد الخالق إلى منزله ، واتفق مع والدته على أن تفاتح أباه فى أمر الزواج . وفيما كانا جالسين على الكنبة يتحادثان إذ سمعا الباب يدق ، فعلما

مَن القادم ، واستعدا لمقابلته ، وهرولت مبروكة الجارية إلى حبل « السقاطة » فشدته . ودخل محجوب افندى وهو مقطب الوجه ، والتقط فلفل يتمسح بين رجليه . واتجه كالمعتاد نحو تقفيصة الدجاج ودقق النظر فيها ، ثم أخذ يسب الجارية لأهمالها نظافة المكان . فسمعته زوجته ومالت على ابنها وهمست فى أذنه قائلة :

— أبوك معكوس اليوم يا عبد الخالق

فأجابها الشاب فى حدة :

— معكوس أو غير معكوس لا بد من أن تكلميه فى الموضوع

وصعد محجوب افندى السلالم وهو يزوم ، ودخل حجرة الجلوس حيث زوجته وابنه جالسان . فما إن وقع بصره على عبد الخالق حتى كشر عن أنيابه ، ووقف أمامه منتفخا فى عتو بقامته القصيرة وجسمه النحيف ووجهه الأعجف ، وقال :

— كيف تجرأت اليوم على ضرب بيومى افندى يا ولد ؟

فنظر الابن إلى أبيه متحدياً إياه ، ولكن سرعان ما خفض بصره وقال فى لهجة مستكنة :

— أنا ؟ لا والله العظيم

— العظيم لما يسخطك . قلت لك كيف تجرأت يا مجرم على ضرب صديق بيومى افندى ، انطق وإلا أنطقتك بالرغم منك

— من الذى قال لك ذلك ؟ أقسم برأسك يا أبى . . .

— كنتم جماعة ومعكم دسوقى الولد التالف الذى مصيره اللومان والذى حرمت عليك أن تصاحبه . وقد ترصدتم له فى نهاية الحارة .

— الناس يكذبون عليك يا أبى

— اخرس . يكذبون على أنا ، أتجسر على هذا القول أمامى ؟

وتقدمت الأم نحو زوجها وعلى فمها ابتسامة ذليلة وقالت :

— هدىء روعك ياسى محجوب . الولد جاهل

لا يعرف أن يتكلم. يمكن يكون مظلوم ، أقعد على الكنبة ، سأعمل لك فنجان قهوة من البن العال الذى أعطتنى اياه حرم الباشا ، البن الذى قلبك يحبه .

وتضاحكت فى تكلف محاولة ادخال السرور على قلب زوجها

فنظر الرجل اليها طويلا وقال :

ـــ سبحان الله فى طبعك ياستى

ثم صاح فى وجهها قائلا :

ـــ قلت لك مائة مرة لا تتداخلى فى ما لا يعنيك يا امرأة . أنتِ التى أفسدت هذا الولد ، أنت المسؤولة عن كل هذه المصائب .

فجعلت تربت بيدها على كتفه وهى تقول :

ـــ كلامك كله مظبوط ياسى محجوب ، أنا أستحق ضرب الجزم . ولكنك تعلم قلب الأم . والولد والله العظيم نيته سليمة . وأولاد الحرام كلامهم كثير . تعال اجلس هنا وروّق دمك . سأذهب فى الحال لعمل القهوة .

وهرعت إلى المطبخ وعبد الخالق يتبعها . وجلس الأب على الكنبة يجفف عرقه . ثم أخرج من جيبه مسبحة أخذ يداعب حباتها مداعبة عصبية . وعادت الأم بعد برهة وجيزة ومعها صينية القهوة يفوح منها عطر المستكى والحبهان . وصبت لزوجها فنجانا وناولته إياه وهى تقول :

— قهوة ملوك . أقسم برأسك الغالى أنه لا يوجد فى مصر كلها من يستطيع أن يعمل لك قهوة كهذه . ألا تعترف بأنى أحسن قهوجية فى البلد ؟

ونظرت اليه تستجديه الابتسام والبشر . فلم يجبها محجوب افندى بشىء ، وظل فى عبوسته يداعب حبات المسبحة وينظر فى اتجاه آخر . ودخل عبدالخالق الحجرة فى سكون ، ووقف بعيداً بجوار الباب . وجلست أم عبده متربعة على الأرض بجوار قدمى زوجها . وعم المكان صمت ثقيل لم يسمع فيه إلا صوت محجوب وهو يحتسى القهوة ، وبعض تنهدات من زوجته . وكان عبد الخالق

وأمه يتبادلان النظرات فى الخفاء بين فترة وأخرى

وأخيراً مدت الأم يدها ، وجعلت تمسد قدمى زوجها ، ثم قالت بصوت خافت وعيناها لا تفارقان الأرض :

— أريد منك شيئا ياسى محجوب .

فأجابها فى لهجة بين الغضب والرضا :

— وما هو ؟

— عدنى أولا بالقبول

— أمرك عجيب ! أخبرينى أولا ما الذى تطلبينه ؟

فأكبت على قدميه تقبلهما فى انفعال وهى تقول :

— اعمل معروف يا سى محجوب

فأجابها وهو يحاول سحب رجليه :

— ماذا تريدين ؟

فرفعت اليه عينيها المبللتين بالدموع وقالت :

— أريد أن أفرح بعبد الخالق ياسى محجوب .

فحملق الرجل فيها فى دهشة لا تخلو من غضب وقال :

ــ تفرحين بعبد الخالق ؟ تفرحين بهذا الولد الخسران ؟

ــ اعمل معروف يا سى محجوب . كلمة القبول منك . والباقى كله علىّ

فلم يجبها محجوب افندى وعاد يداعب مسبحته . وأتمت هى كلامها فى لهجة كلها استعطاف ومذلة :

ــ أريد أن أرى لى أحفادا ! أتمتع برؤيتهم قبل أن أموت . أحفاداً أضمهم إلى صدرى وأقبلهم ، أحفاداً لنا يا سى محجوب يملأون البيت سعادة ونوراً .

فكح الرجل عدة كحات دون أن يتكلم . وبعد صمت قصير عادت الأم الى كلامها فقالت وهى مطأطئة الرأس

ــ إنها فتاة يتيمة ومنكسرة من الجيران . حبايبنا من زمن قديم

فنظر زوجها اليها وعلى فمه ابتسامة استخفاف وقال :

— أظنك تعنين بنت أم محمد الدلالة ، البنت التى تخرج الى الشارع بالأحمر والأبيض ،وترقص فى مشيتها مثل الغوازى

فنظرت اليه أم عبده نظرة عتاب وقالت :

— فايقة بنت أم محمد ؟ مالها ؟ بنت مؤدبة وعاقلة

— ماشاء الله على اختيارك اللطيف . . . تريدين أن تزوجى ابنك من بنت دايره طول النهار فى الشوارع . أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يوم راحة فى الدنيا مادمت أنت معه

فاهتز الفتى محموما ،وأحس بالنيران تأكله،واكتست عيناه بضباب كثيف ، وانطلقت أمامه ذكريات حياته جامحة فى اختلاط . مرت مرور البرق فى السماء الملبدة بالغيوم . وتراءى له شبح والده الكريه ينهال عليه بالسياط الحامية يمزق جسده ، وغير بعيدة عنه فايقة محبوبته تفر جازعة وهى تولول ، وبالقرب منها دسوقى صديقه يضحك

ملء فيه ضحكات متتابعة . . . وأحس برجفات كهربائية متوالية تزلزل كيانه ، والتفت حوله فرأى الدنيا حمراء قانية فصرخ يقول :

ــ مادمت أنت معى فلن أرى يوم راحة أبدا . .

فالتفت محجوب افندى إلى ابنه وهو لا يصدق أذنيه وأرسلت عيناه شرراً وقال :

ــ ماذا تقول يا كلب ؟

ونظرت الأم إلى ابنها ، ثم إلى زوجها ، واصفر وجهها وارتجفت ركبتاها ، وتكلمت بصوت متقطع خافت موجهة الكلام لابنها :

ــ عيب ياعبده . هذا أبوك

فصرخ الفتى مجيباً بصوت رن صداه فى المكان رنيناً هائلا وقال :

ــ أبى ! لا أعرف شيئاً اسمه أبى

ثم نظر إلى محجوب افندى وقال :

ــ سأتزوج من فايقة رضيت أم لم ترض . فاهم ! لست

صغيراً لتتحكم فى أهوائى ، سامع ؟

وأحس محجوب افندى برهبة غريبة ، وتحرك على الكنبة محاولا استعادة شجاعته وقال متمتما :

ـــأين عصاى ؟ إيتونى بها

ولكنه لم يكد يتم جملته حتى رأى عبد الخالق يهجم عليه . وفى لحظة كانت يدا الفتى تضغطان رقبة أبيه ، وأظفاره ناشبة فى لحمه !

وأخذ الأب يجاهد مااستطاع لاستخلاص حياته من يدى ولده ، ولكن يدى عبد الخالق كانتا كطوقين من حديد حول رقبته . وجاء القط فلفل ووقف بباب الغرفة يحدق فى الأب وابنه بعينيه البراقتين ، وهو ناشر أذنيه بقوة ، وذيله المنتصب يهتز هزات عصبية ، فرماه عبد الخالق بنظرة حادة تجلى فيها الحقد والكراهية وجعل يضغط عنق أبيه ضغطاً شديدا . . . .

يحفظ في البوسطة

يحفظ فى البوسطة

فى يوم من أيام الآحاد وحديقة جروبى مكتظة بجمهورها الأنيق ، دخل فكرى بك يتـدحرج بجسمه الـكروى الغليظ ، ويلتفت حوله مبتسما بوجهه المفرطح وعينيه العمشاوين . ثم اتجه نحو ركنه المعهود وجلس على مقعد ذى مسندين ، ووضع رجلا على رجل ، وجعل يرمق السيدات بنظره الجشع من خلف نظارته السميكة الزجاج . وكان يأتي بحركات متكلفة متصنعا فيها الرشاقة والتجمل ليجذب نظر السيدات إليه . فسخر منه بعضهن وأدرن له ظهورهن . ولم يأبه له بعضهن على الاطلاق .

وفيما كان مستغرقا فى مناوراته الغرامية الفاشلة ، إذ سمع صوتا يقرئه السلام ، فالتفت نحوه فرأى صديقه كاملا يجلس على مقعد بجواره ويقول له :

ـــأنت دائما محول نظرك نحو النساء؟ أعوذ بالله . ارحم نفسك يا أخى .

فاجابه فكرى وهو يبتسم :

ـــ وما الذى يضايقك ؟

ـــلا يضايقنى شىء ، إنما أنا أرثى لحالك . .

وكامل شاب أنيق ، جذاب الملامح ، ليس له هم فى الحياة غير ملابسه وسيارته ، فهو وعربته نموذجان صادقان من آخر طرز .

وبعد قليل ظهر من بعيد شاب طويل القامة عريض الأكتاف ، يسير فى تؤدة وتعاظم ، ويرمق الناس بنظرات جافة فيها ترفع وازدراء ، فصرخ كامل قائلا :

ـــ مراد !

وجاء مراد إليهما وسلم عليهما صامتا ، ثم جلس فى أنفة ورزانة ، وما كاد يستقر فى مجلسه حتى تكلم كامل فى حماسة قائلا :

ـــ أتحزران فى كم دقيقة قطعت المسافة من المنزل

إلى هنا فى سيارتى البويك الجديدة ؟

فأجابه فكرى وهو ينظف زجاج نظارته :

— فى عشر دقائق

والتفت كامل نحو مراد منتظراً إجابتـه ، فمط مراد شفتيه فى غير اكتراث ، وقال فى هدوء متكلف وإطالة ليس لها مسوغ ، وهو يتأمل دخان سيجارته :

— فى خمس دقائق

فأجاب كامل فى لهجة انتصار وافتخار :

— ثلاث دقائق ونصف دقيقة ، لا أكثر من ذلك.

ومرت فترة صمت قصيرة قال على أثرها مراد وهو لم يحول نظره عن دخان سيجارته :

— إذن فسيارتك تسير بسرعة عشرين ميلا فى الشوارع المزدحمة .

فأخرج كامل المونوكل ، وأحكم وضعه على عينه اليسرى وقال :

— وثمانين فى الشوارع الخالية

فحدق فكرى فيه النظر وقال :

— وهل سقت بهذه السرعة ؟

سقت بها آلاف المرات فى شارع الهرم ومصر الجديدة ، ومعى صديقاتى الحسان « السبور » اللاتى لايخشين شيئاً

فأجاب فكرى بلهجة جازمة :

— هذاجنون . جنون مطبق . وأنا لا أصدق ذلك .

فقال كامل على الفور فى لهجة الساخر:

— الجنون المطبق هو أن يقتل الانسان نفسه نظراً إلى السيدات ، وهن لا يأبهن له ، ويدعى الجمال وهو صفر منه

فاحتد فكرى وقال :

— ماذا تقصد بقولك هذا ؟

وغمز كامل بعينه لمراد . ثم اندفعا يقهقهان . وقال كامل

— إن صديقنا فكرى سقط فى امتحان الهيئة عند السيدات .

فقال فكرى وهو يحاول كتم غيظه متظاهراً بالهدوء :

ـــ يظهر أنك تعتقد فى نفسك أنك أصبحت دون جوان عصرك ولكنك لو . .

فقاطعه كامل قائلا فى زهو ويقين :

ـــ معلوم . وهل ينكر أحد ذلك ؟

فلم يستطع فكرى أن يضبط عواطفه وانفجر يقول:

ـــ كذّاب . وألف مرة كذاب . . . أنا أول من ينكر ذلك .

ونظر مراد إلى فكرى نظرة حادة ، ثم نفض سيجارته وقال فى لهجة خشنة متزنة :

ـــ ما هذه المهاترة يا فكرى . أنسيت أين أنت ومع من تجلس ؟

وقال كامل فى هدوء ، مخاطبا فكرى :

ـــ عندى مائة برهان وبرهان على أنى دون جوان عصرى . ويمكننى فى هذه اللحظة أن أعرّفك بعشرٍ من حسان السيدات الجالسات هنا فى هذا المكان . انى مستعد

ولكنى لا أتحمل تبعة إعراضهن عنك وسخريتهن منك ..
أما أنت فما عندك ؟ . قل . . قدّم ان أمكنك برهانا واحدا.

فارتبك فكرى ، وجعل يتكلم فى اختلاط منددا بأخلاق صاحبه . وكان كامل يجيبه باجابات محكمة فيها كثير من السخرية والتهكم . أما مراد فكان يراقبهما فى ترفع وهو يقهقه فى وقار قهقهته المتزنة .

— ٢ —

عاد فكرى إلى منزله ، وهو مضطرب الفكر ثائر الأعصاب . وما إن دخل حجرته حتى وقف أمام المرآة وجعل يطيل النظر فى نفسه ، وهو يفكر فى ذلك الحظ السيء الذى يلازمه مع السيدات . انه ليس دميما منفرا . صحيح أنه ليس وافر الحسن . ولكنه جذاب الملامح وخفيف الدم وأنيق . . كذبٌ ما يشيعه عنه أصدقاؤه. انهم يغارون منه .انهم يخشون مزاحمته . .

وترك المرآة وجعل يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ثم نادي الخادم الصغيرة لتأتيه بكوب ماء بارد . انه يحترق

كالآتون. وجاءته الخادم بالماء، فما كاد يأخذ الكوب منها حتى قذف به فى وجهها محتدا وهو يقول :

— أهذا هو الماء البارد الذى طلبته منك ؟ وما هذا الكوب الذى لا تطاق رائحته ؟

وخرجت الخادم تمسح وجهها وهى ترتعد خوفا . وعاد فكرى يذرع أرض الغرفة وهو يزمجر هائجا . وبعد حين رمى بجسمه على السرير ، ثم أغمض عينيه واسترسل فى أحلام غريبة .

— ٣ —

ومرت على هذه الحادثة خمسة أيام ، وعاد الصفاء بين فكرى وصديقيه . والتقى الثلاثة فى حديقة جروبى كالمعتاد وكان أكثرهم ابتهاجاً فى هذه المرة فكرى . ولكنه كان يبدو عليه فى الوقت نفسه انفعال غريب لم يخف على أحد، وبعد أن انتهى الثلاثة من تناول شرابهم قام فكرى وأخذ يحث صديقيه ليصحباه إلى دار البريد .

فما إن وصلوا حتى استأذن منهما ، وقصد إلى شباك

البوستة . وبعد برهة عاد فى يده خطاب أخذ يفض غلافه فى عناية ، ويديه ترتجفان . وهو مشرق الوجه لامع العينين . وكان الغلاف صغيراً سماوى اللون رشيقا ، فأخرج منه فكرى رسالة سماوية اللون أيضاً مزركشة الأطراف تطاير منها عطر الياسمين فملأ جو المكان . فقال كامل مداعياً :

— الله الله . هذه روائح الحب تتطاير من الخطاب . يظهر أنى سأغير رأيى فيك يا عزيزى فكرى .

فازداد وجه فكرى إشراقاً . وقال مراد وهو يبتسم ابتسامته الرزينة :

— هذه أسرار ليس من حقنا الاطلاع عليها .

فقال فكرى :

— وهل أخفى عن صديقىّ سراً ؟

فقال كامل :

— إذن ممن جاءتك هذه الرسالة يا بطل ؟

وتطلع إلى الرسالة قبل أن يأذن له فكرى بذلك

ولكن فكرى لم يعارض ، بل سمح لصديقه أن يطلع عليها عن طيب خاطر . وصرخ كامل مظهراً دهشته :

— يا ابن الأيه .. ابنة المرحوم مهفهف باشا . . .

ثم هجم على فكرى ، وأمسك بيديه ، وجعل يهزهما بشدة ويقول :

— برافو فكرى برافو . أهنئك من كل قلبي . هكذا فليكن الرجال وإلا فلا . .

وأخذا يتصايحان فى ضجة . وبعد حين مال فكرى على صديقيه وقال هامساً :

— لا مؤاخذة ، إذا تركتكما الآن . .

ثم غمز بعينيه ، وأشار إلى الخطاب ، وسلم عليهما وتركهما وانصرف .

— ٤ —

لم يذهب فكرى الى ميعاد الغرام كما أوهم رفيقيه ، بل قصد الى منزله . ودخل غرفته ووقف أمام مرآته وقلبه يفيض سروراً وانتصاراً . ثم نادى خادمه الصغيرة وطلب

منها كوب ماء. فجاءته به على عجل وهى تتوقع أن ينهال عليها صفعاً وركلا بلاسبب كما عودها. ولكن عظمت دهشتها إذ وجدته قد لاطفها، وهش لها وبش، وأخرج من جيبه قطعة من النقود، وأعطاها إياها وهو يقول :

— هذا بقشيش لقيامك اليوم بواجبك فى الخدمة خير قيام.

ثم أخذ يباسطها فى الكلام وقتاً ما. وأخيراً صرفها. وجلس أمام مكتبه جلسة الشاعر المفكر. وأخرج من الدرج صندوقاً من الرسائل السماوية اللون المزركشة الأطراف. فتناول منه إحداها ثم جعل يكتب فى تأن واتقان ما يأتى :

حبيبى ومعبودى فكرى.

يعجز قلبى عن وصف ماشعرت به من السرور حينما قابلتك اليوم فى حديقة الجزيرة. فقد كدت أنسى نفسى معك وأنت تحادثنى بعذب كلامك، وتنظر إلى بعينيك الساحرتين، لقد كانت تلك اللحظة التى أمضيتها معك

أشهى وقت أمضيته فى حياتى ، لأننى عرفت فيها قيمة الحب . والحب ثمرة الحياة الشهية وعصيرها الذى لا يمله أحد . دعنى آمل أن أراك دائماً لأمضى الحياة بين ذراعيك

المحبــــه

زكيه

(كريمة المرحوم مهفهف باشا)

* * *

وختم فكرى الرسالة بعد أن عطرها بعطر الياسمين . ثم كتب على الغلاف العنوان الآتى .

عزيزى المحترم احمد بك فكرى

يحفظ بالبوسطة

مصر

ونام فكرى فى هذه الليلة نوما هادئاً مشبعاً بأحلام لذيذة لم يستمتع بنوم مثله فى حياته كلها !!

سبب تعـــارف

سبب تعارف

وقف سليمان افندى أمام أحد المنازل فى شارع محمد على ، ورفع بصره إلى اليافطه الكبيرة المعلقة على الشرفة ، المكتوب عليها بالخط الثلث والرقعة :

الدكتور نجيب شافعى

طبيب وجراح وحكيم عيون

العيادة من ٩ — ١٢ صباحا ومن ٤ — ٦ مساء

وابتسم ، وأخرج ساعته فوجدها السادسة ، فأسرع الخطا ، ودخل المنزل ، وأخذ يصعد درجات السلم أربعا أربعا ، وقد تأكد من وصوله متأخراً ، ووقف أمام باب العيادة وهو يصلح هندامه ، ثم قرع الجرس ، ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح الباب

دخل سليمان افندى وسار وراء الخادم فى ممشى مظلم

رطب ، ثم عرج على اليمين إلى حجرة الانتظار ، فاذا بها حجرة واسعة معتمة مؤثثة بأثاث رث ، وجلس على مقعد من المقاعد بعد أن علم من الخادم أنه أول زبون جاء اليوم

مكث سليمان افندى برهة يقلب بصره فى أنحاء الغرفة وهو سابح فى أفكاره ، ثم قام متململا وجعل يتسلى بالنظر إلى الصور المعلقة على الحائط ، وكان يصفر وينقر بأصابعه على عصاه الخيزرانية ، ثم ترك الصور وأخذ يسير فى الغرفة ذهاباً وإياباً ، وأخرج ساعته فوجدها السادسة والنصف ، فصفق بعد أن أعياه البحث عن موضع الجرس ، ولما جاء الخادم سأله سليمان افندى :

— أين الدكتور يا حضرة . . . الساعة السادسة والنصف ...

فابتسم الخادم وقال معتذراً :

— إن الدكتور كان نائما ، وقد أيقظته ، وهو الآن

يرتدى ملابسه . . . خمس دقائق فقط ..

فنظر سليمان افندى الى الخادم ، وهو متحير حانق ، وقال :

ــ الدكتور كان نائما ... هه ... أتوقظونه عندما يحضر المرضى ؟

فابتسم الخادم فى خبث وقال :

ــ هذه هى العادة المتبعة هنا يا سيدى ...

وخرج الخادم ، واستأنف سليمان افندى السير فى فى الغرفة ذهابا وإيابا . وهو ينظر بين فترة وأخرى إلى الصور المعلقة على الحائط ... ثم أخرج ساعته فوجدها السابعة ، فاحمر وجهه غضبا ، وصفق بشدة مستدعيا الخادم . ولما حضر صرخ فيه سليمان افندى قائلا :

ــ أيريد الدكتور أن يقابلنى أم لا ؟

فقاده الخادم إلى حجرة الدكتور الخاصة التى يقابل فيها المرضى وقال له :

ــ تفضل هنا يا سيدى ، سيحضر الدكتور حالا

ثم تركه وخرج ، ونظر سليمان افندى حوله فوجد الحجرة أكثر نظافة من حجرة الانتظار ، بها منضدة للعمليات وخزانة للآلات الجراحية ، وفى ركن من الأركان مكتب صغير يكاد يكون مهملا ، لمح سليمان افندى كل هذه الأشياء وهو جالس على مقعده بالقرب من مكتب الدكتور ، ثم تحرك فى مجلسه حركة امتعاض واحتقار ، وجعل يهز قدمه ، وبعد قليل فُتح باب الغرفة ودخل منه الدكتور نجيب شافعى الطبيب والجراح ، والحكيم الاختصاصى فى العيون ، فقام سليمان افندى مبتسما وسلم عليه وهو يقول :

— أظن أننى متشرف بحضرة الدكتور نجيب بك شافعى .

فابتسم الدكتور ، وأجاب بصوت خشن :

— نعم يا سيدى . أنا نفسى

وجلس على مقعد مكتبه وجعل يتثاءب بصوت بشع . وكان وجهه محتقناً كثير التجاعيد ذا عيون حمراء منتفخة . والتفت إلى سليمان افندى وقال له :

ـــ أنا آسف إذ جعلتك تنتظرنى طويلا :

ـــ العفو يا دكتور . لم أنتظر إلا برهة وجيزة أمضيتها على أحسن حال!

وكح الدكتور كحة كريهة دامت بضع دقائق . فاشتد احتقان وجهه . ونفرت عروق رقبته . ثم تابع حديثه قائلا :

ـــ لم أتشرف بحضرتك بعد

ـــ سليمان السيد نجل عبد الله بك السيد المهندس والخبير

ـــ تشرفنا يا بك . هل حضرتك فى المدارس العليا أم تخرجت ؟

فارتبك سليمان افندى وقال متلعثما :

ـــ أنا طالب فى المدارس الثانوية . .

وصمت كلاهما برهة . ثم عاد سليمان افندى إلى التكلم وقال :

— لقد تاخرت يادكتور فى الدراسة بسبب المرض.
لقد أصبت بالتيفوس والملاريا والحمى الراجعة والقرمزية .
— لاحول ولا قوة إلا بالله . هذه أمراض جسيمة أهنئك بشفائك منها ، ولكن لندخل فى الموضوع . هل حضرتك مريض ؟ ومم تشتكى ؟

فاعتدل سليمان افندى فى كرسيه، وأخرج علبة سجائره وقدم للدكتور سيجارة ثم تناول لنفسه مثلها . ثم أخذا يدخنان . وبعد برهة أخرج سليمان افندى بطاقة من محفظته وقدمها للدكتور وهو يبتسم .

فتناول الدكتور البطاقة وقرأ فيها :

سنيه زاهر

معلمة بيانو خصوصيـــة

شارع الساحة رقم . . مصر

وظهرت عليه أمارات الدهشة وقال مداعبا :

— يظهر أن حضرتك تدرس البيانو مع الآنسة سنية زاهر

فضحك سليمان أفندى ملء شدقيه وقال بلا كلفة :

ـــ أنا أجهل البيانو كما أجهل المعادلات الجبرية فى المدرسة يا دكتور .

ثم أدنى مقعده من الدكتور وقال له كأنه يسر له أمرا :

ـــ لقد امتدحتك الآنسة كثيرا

ففرك الدكتور عينيه وتنحنح ، ثم قال :

ـــ العفو ياسليمان بك، العفو

فصمت سليمان أفندى برهة ثم قال :

ـــ لم تقرأ يا دكتور ما هو مكتوب على ظهر البطاقة

فقلب الدكتور البطاقة ، وقرأ ما هو مكتوب على ظهرها . وكان يبتسم ويلعب بأحد أقلام المكتب . ثم رفع نظره إلى سليمان أفندى وقال :

ـــ طيب ياسيدى ، أنا فى خدمتك مادمت قد حضرت من عند الآنسة سنيه

ـــ مرسى

وأخذ سليمان يروى للدكتور كيف أن ناظر المدرسة كتب لوالده يشتكى من كثرة انقطاعه عن المدرسة وأنه سيضطر إلى فصله إذا تغيب مرة أخرى بلا سبب وجيه . وكيف أن والده هدده بالطرد من المنزل إذا لم يواظب على تلقى دروسه

فابتسم الدكتور وقال :

—المسألة عويصة يا سيد سليمان . .

ثم قام من مقعده ودنا منه ، وقد أكسب وجهه بعض مظاهر الوقار ، وأمسك برأس سليمان أفندى وقال له :

— لا تخف أريد أن أفحص عينيك . . انظر فوق.. هكذا . . تماما . . لقد قلت انك أصبت بالتيفوس والملاريا

فأكمل سليمان افندى قائمة الأمراض الوهمية قائلا :

— . . والحمى الراجعة والقرمزية و . .

— يكفى ياعزيزى . . إن لبعض الحميات تأثيراً سيئا على العيون . وهذا ماألاحظه فى حالتك .

ـ وهل عيني مريضة ؟

ـ أنت مصاب بالتهاب فى غشاء الجفن الأسفل . .

ـ . . غشاء الجفن الأسفل . . !

ـ يسبب لك تهيجاً فى العين من وقت لآخر . وهذا يضايقك كثيراً بلا ريب . ويتطلب عناية دائمة .

ـ إذن العلاج سيستمر بلا انقطاع . .

وعاد الدكتور الى مكتبه فى رزانة ووقار ، وبدأ يخط على ورقة رسمية من أوراقه ما يأتى :

إن التلميذ سليمان افندى السيد نجل سعادة عبدالله بك السيد المهندس والخبير مصاب بلحمية مزمنة فى الغشاء الجفنى الأسفل تضطره كثيراً الى لزوم حجرته وعمل المكمدات الساخنة . وقد تغيب عن المدرسة يومى السبت والأحد ١٧ و ١٨ مارس لهذا السبب . فلزم كتابة هذه الشهادة شرحاً لحالة المريض . الدكتور نجيب شافعى

طبيب وجراح وحكيم عيون

ثم ناول الشهادة لسليمان افندى . فقرأها بسرور ، وقام وهو يردد الشكر للدكتور ، ولما مد يده للسلام عليه قال له :

— ألا نتقابل فى القريب العاجل يادكتور ؟

— بكل سرور . أين تريد أن يكون ذلك ؟

— فى شارع الســـاحة رقم . . حيث نشنف سمعنا بألحان البيانو !

ففتح الدكتور الباب وقال له :

— اخرج ياخبيث . . .

مغفل

مغفــــل

ذهبتُ إلى محطة سيدى جابر لأستقل منها القطار إلى القاهرة . وما كدت أدخلها حتى وقع بصرى على صديقى شافعى وكان منهمكا فى قراءة رسـالة لم أتبين ما فيها ، فلم يرنى ، واختبأت فى ركن لأراقبه ، إذكان يلذ لى ممازحته والاطلاع على أسراره ، وشافعى صديقى من أيام التلمذة ، معروف بسذاجته وقصر نظره فى أمور الحياة ، وله نوادر كثيرة اشتهر بها صغيراً وكبيراً ، له جسم ضئيل ووجه كوجوه الأطفال بعيون براقة .

بدأت أراقب شافعى من مخبئى ، فوجدته بعد أن أتم قراءة رسالته اختلس منها قبلة حارة ثم أودعها فى جيبه ، وتطلع إلى ساعة المحطة ثم إلى ساعة يده ، وسار بخطوات سريعة غير منتظمة . وكانت تصدر منـه بعض حركات وإشارات عارضة غاية فى الغرابة . وأخذ يقطع الرصيف

ذهاباً وإياباً. وبغتة بدرت منه حركة شاذة، وأخرج المونوكل على عجل، وركزه على عينه، ثم ابتسم وتابع سيره وهو يتطلع إلى ساعة المحطة وإلى ساعة يده. وبعد قليل وقف وأخرج الرسالة وقرأها بشغف، ثم أودعها قبلة خاطفة وأرجعها إلى جيبه. وعاد يقطع الرصيف بخطوات شاردة لا انتظام فيها

وتركت مكمني، وقد وجدت شافعي يخرج الرسالة من جيبه ليتلوها ويقبلها، فباغته فى خفـــة من الخلف وخطفتها. فالتفت إلى غاضباً وهو يزمجر. ولما تبينني قال:

— أهو أنت! هذا هزار ثقيل جداً ياعباس. خصوصاً فى هذه المسائل

ومد يده فى شكل صبيانى، وحاول استرداد الرسالة منى، فأرجعت يده فى حزم إلى موضعها، ونظرت اليه نظرة توبيخ وقلت:

— كن رجلا. ما هذه الأعمال؟

فوقف أمامى وقفة التلميذ الغاضب المقهور وقال:

ـــ قلت لك هذه مسألة خصوصية .

ـــ وهذا ما يزيد رغبتي في الاطلاع عليها

وأمسكت بيد واحدة يديه كليهما . وبدأت أقرأ الرسالة في هدوء فاذا بها برقية فيها ما يأتي :

شافعي بك بكازينو سان استفانو بالرمل .

«احضر اليوم . المقابلة في ميدان لازوغلي الساعة الرابعة . أقبلك ألف قبلة »

وكان شافعي يحاول التخلص من يدي ، ويقول مدمدما :

ـــ أقسم بالله لن أكلمك ولن أعرفك بعد هذه العملة.

وسمعنا جلجلة القطار . وعلت الجلجبة من كل جانب فوضعت الرسالة في جيبي وأخليت سبيل شافعي . واهتم كل منا بأمتعته

واخترت ديوانا خالياً في الدرجة الأولى ، وجلست فيه مرتاحا وأنا أبتسم . وبعد قليل جاء شافعي وهو مغيظ يجفف عرقه وقال :

ـــ لقد بحثت عنك فى الدرجة الأولى كلها وفى عربة بولمان .

فأشعلت سيجارة وقلت له

ـــ ولماذا لم تبحث فى الدرجة الثالثة ؟

ـــ قلت لك لن أكلمك ولن أعرفك بعد الآن .

ـــ وما الذى دعاك لأن تبحث عنى ما دمت لا تريد معرفتى ؟

فمد لى يده ، وقال :

ـــ هات الرسالة

ـــ هون عليك قليلا . إن الله مع الصابرين . اجلس أولا

ودفعته فى لطف على المقعد الذى أمامى ، فجلس طائعاً وقال :

ـــ وهل تعطينى الرسالة ؟

ـــ بلا شك . . إنما نريد أولا أن نتفاهم . . .

وأدنيت وجهى من وجهه وهمست قائلا :

ـــ أقسم بالله لم أكن أتوقع ذلك الأمر منك مطلقاً يا شافعى .. برقية غرام وميعاد على قارعة الطريق .. هذا فظيع !

ثم ناولته سيجارة ، فقبلها على الفور ، وتابعت حديثى قائلا :

ـــ لقد كنت تضحك على ذقوننا عندما كنت تتظاهر أمامنا بالرزانة والاستقامة والحقيقة أنك من أخبث الخبثاء

فابتسم وقال :

ـــ أوه .

ـــ اطلع من دول .

وزغدته فى جنبه وقلت :

ـــ منذ كم شهر يا بطل ؟

فقهقه وقال بعد تردد لم يدم طويلا :

ـــ منذ ثلاثة أشهر

ـــ حبيب قرارى صحيح .

ففتل شاربه الأصفر الصغير . وجلس جلسة فيها شيء من العظمة والاعتداد بالنفس ، ومد يده وقال :

— أعطني الرسالة يا عباس

— بكل ممنونية .. ولكن على شرط

— وما هو ؟

— أن تطلعني على التفاصيل

فمط شفتيه وابتسم ، ثم قال وهو ينظر إلى سماء الحجرة:

— ليس هناك تفاصيل

فقمت على الأثر وقد تظاهرت بالغضب وقلت له :

— آه . لاتحاول أن تقنعني بأن قصة غرامك خالية من المغامرات .. لن تضحك علىّ بعد الآن .

فابتسم ابتسامة كبيرة وقال:

— أنت صديقي الودود ، فلن أخفي عنك سراً .. إنما ...

— إنما سرك في بئر . كن مطمئناً

وناولته سيجارة ثانية ، وأخذت لنفسي أخرى .

وبدأ شافعى يحدثنى فى استفاضة ودقة عن قصة غرامه . واندفع يصف لى محبوبته فى أوصاف خلابة ، ويروى لى نتفاً من أحاديثها مقلداً لى لهجة صوتها ورنين ضحكتها ، وكثيراً من حركاتها وإشاراتها . وأخيراً أمسك يدى بشدة . وقال :

— فى كل مرة أقابلها أمسك يدها بين يدى ، وأنهال عليها تقبيلا . هكذا .

وهوى على يدى يقبلها فى شغف غريب ، ولما رفع رأسه وجدتُ عيونه ندية فقلت له وأنا ألاطفه :

— هوّن عليك .. إن الحب دائماً فى عذاب .. ولكن عذابه لذيذ . !

فقال وهو يمسح عينيه :

— صحيح .. عذابه لذيذ ... لذيذ جداً ...

وأخيراً ناولته الرسالة ، فطواها فى احتراس ووضعها فى محفظة نقوده ، وعدنا نتكلم . فطرقنا مواضيع مختلفة ، ولاحظت على شافعى تغيراً محسوساً ، فقد انطبعت على

محياه الطفلى مظاهر العظمة الكاذبة ، فعقد ما بين حاجبيه واتخذ هيئة خاصة فى نفخ دخان سيجارته . وأكسب صوته بعض الخشونة ، وكان يكثر من الكلام فى الشؤون الغرامية وهو يغمز لى بعينه ويتنحنح ، ويزغدنى ثم يقهقه ضاحكا بلا مناسبة . وكان يورد النكتة الخالية من أى ملاحة ، ثم يصيح مهللا ضاحكا فى جلبة عظيمة، وكنت أجاريه فى سخافاته حتى وصلنا محطة « بنها » فانتبه لنفسه وقام على الفور وقال :

ـــ عن اذنك بضع دقائق .

وفتح الباب ، واستدعى خادم القطار ، وأشار له إلى حقيبة من حقائبه وقال :

ـــ اسبقنى إلى محل التوالت . وجهز لى منشفة نظيفة .

وخرج الخادم حاملا الحقيبة ، وشافعى يتبعه

ولما اقترب القطار من شبرا عاد صديقى . وكان قد غيّر بدلته وأتم زينته ، وأكثر من العطر . دخل يخطو فى هوادة وهو يبتسم . فقلت له على الفور :

— من يراك هكذا يقل إنك عروس فى ليلة دخلته.
— أرجوك . . .
وتقدمت منه وقلت :
— اقترب مني لأعانقك . لعلى أكتسب شيئا من رشاقتك وأناقتك
وعانقته وقبلته ، فأمسك يدى ووضعها على قلبه وقال:
— ألا تشعر بشيء . . إن قلبي يحترق !
— تشجع يا صديق .
وافترقنا عند باب المحطة . وركبتُ سيارة إلى منزلى . وفى الساعة السادسة مساء خرجت قاصدا جروبى، ولمحت شافعى جالسا بمفرده بعيدا تحت الشجرة الكبيرة وكان يحدق فى أغصانها وعلى فمه ابتسامة اغتباط ساذجة تعبر عما يجول فى خاطره من أحلام وآمال . فقصدته على الفور وبادرته بقولى هامساً :
— والألف قبله يابطل ؟
— ولا واحدة !

— كيف . . . ؟

— لم أحظ إلا بنظرة واحدة

فصرخت قائلا :

— نظرة واحدة فقط . أهذا ممكن ؟

فجعل يكرر وهو يشد على يدى فى صدق وتأكيد :

— والله نظرة واحدة فقط !

وأخذ يروى لى كيف أنه انتظر مرور سيارتها فى ميدان لاظوغلى ساعة كاملة . ولما مرت السيارة لمح داخلها طيفها الجميل يلوّح له بمنديل ، واختفت السيارة على الأثر وعاد هو إلى جروبى ، ولم يفارق مجلسه منذ ساعتين ، وسيعود إلى الأسكندرية بقطار السابعة ونصف . ثم ختم حديثه وهو يتنهد قائلا ووجهه يفيض بالبشر والتأثر :

— الغرام يتطلب تضحيات ياعباس ولكنه لذيذ ، لذيذ جداً

ثم عاد يحدق فى أغصان الشجرة وهو يبتسم فى تبلد غريب ، أما أنا فكنت أحاول عبثاً كتم ضحك خشيت أن ينفجر فيلفت الينا أنظار الجالسين . .

تم الكتاب

ويليه

قلب غانية

وقصص أخرى

فهرس الكتاب

تم طبع « كتاب الوثبة الأولى »
فى يوم الاثنين ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧
بدار النشر الحديث
« مطابع احمد الصاوى محمد » بالقاهرة

ما ظهر من مؤلفات محمود تيمور

كتاب الحاج شلبي

وقصص اخرى

تولت طبعه ونشره لجنة التأليف والترجمة والنشر . بشارع الكرداسى رقم ٩ بشارع عبد العزيز . بالقاهرة . بمصر . وثمن النسخة خمسة قروش .

والكتاب مصدر بمقدمة للأستاذ الفاضل الدكتور شاده . وهي نص المحاضرة التي ألقاها عن المؤلف بمؤتمر المستشرقين بأكسفورد عام ١٩٢٨ .

ومنتهى بخاتمة للكاتب الفاضل الأستاذ سلامه موسى وهي نص الخطبة التي ألقاها عن المؤلف فى حفلة جماعة « المصباح الخافت » عام ١٩٢٨ .

كتاب الوثبة الأولى

ظهر حديثا . ويحتوى على المختار من قصص المؤلف التي ظهرت في مجموعاته الثلاث القديمة : الشيخ جمعه . وعم متولى . والشيخ سيد العبيط . بعد أن هذب بعضها وألف البعض الآخر من جديد . والكتاب مصدر بمقدمة عن « حاجتنا الى الفن » وهي نص المحاضرة التي ألقاها المؤلف في رابطة موظفي الحكومة يوم ٢١ يناير ١٩٣٧

وثمن النسخة ستة قروش .

ابو علي عامل ارتست

وقصص اخرى

يحتوى على مجموعة من الأقاصيص المصرية مذيلة بقصة طويلة
والكتاب مصدر بكلمة للأستاذ الفاضل الدكتور ويدمار . وهي مأخوذة
من مقدمة كتابه الألماني الذي ترجم فيه بعض قصص للمؤلف .

وثمن النسخة خمسة قروش

كتاب الأطلال

رواية مصرية مذيلة ببعض أقاصيص

ثمن النسخة خمسة قروش

كتاب الشيخ عفا الله

وقصص اخرى

مجموعة من القصص المصرية .

ثمن النسخة خمسة قروش

نشوء القصة وتطورها

وهى نص المحاضرة التى ألقاها المؤلف فى
قاعة يورت بالجامعة الأميركية سنة ١٩٣٦.
ثمن النسخة قرش صاغ واحد

قلب غانيـــة

وقصص أخرى

مجموعة جديدة من القصص المصرية
للمؤلف . تصدر فى شهر مارس
سنة ١٩٣٧

فرعون الصغير

وقصص أخرى

مجموعة جديدة من القصص المصرية
للمؤلف . تصدر فى أوائل عام ١٩٣٨

جميع هذه الكتب تطلب من المؤلف

محمود تيمور

٦ شارع الأمير حسين

الزمالك . القاهرة . مصر

وكذلك من جميع مكاتب القطر الشهيرة وبالأخص من :

مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ رقم ١٥ بالقاهرة

« الانجلو المصرية « قصر النيل رقم ٣٣ «

« الوفد « الفلكى رقم ٥٣ «

« الهلال « الفجالة رقم ٦٥ «

« .أمين هندية بميدان سوارس «

المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد بشارع محمد على رقم ٢٠٠ بالقاهرة

دار النشر والتأليف لصاحبها محمد افندى مرسى

بشارع ابراهيم باشا رقم ١٤ بالقاهرة

مكتبة فيكتوريا بشارع زغلول باسكندرية